الفهرس

ثمن العدد ٢ قرشان صاغاً

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز الدكتور أحمد أمين بك — الإدارة — رئيس التحرير المسئول محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة ، تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٥٨٧ — الاثنين ٨ من جمادى الآخرة سنة ١٣٦٩ — ٢٧ من مارس سنة ١٩٥٠ — السنة الثانية عشرة

فى الربيع

للدكتور أحمد أمين بك

يعز علىّ أن يأتى موسم الربيع ولا أكتب فيه ، وكل عام أكتب ولم تفرغ معانيه ، فالأفكار والمشاعر تتجدد كما يتجدد الربيع ، وكم للربيع من معان يجلى الكتاب والشعراء ولا تفنى جدتها ، وتعساً لمن لم يهتز قلبه للربيع ولم تبتهج مشاعره بجماله ، ولم يجاوب عواطفه ، إنه قد حرم العين الفنانة والأذن الموسيقية والشعور بجمال الأزهار والأشجار حرم الخير الكثير ، ودلّ ذلك على أنه جامد القلب ، غليظ العاطفة ، مادى الحياة ، كثيف الطبع .

ها أنا ذا اليوم فى حديقتى الصغيرة والجو جميل والربيع ناضر والأزهار ضاحكة . فليكن حديثنا هذا العام فى الأزهار :

إنها لا شك عالم وحده ، كعالم الطيور وعالم الإنسان ، تتعدد مناظرها ويتنوع جمالها . ويمكنك الحديث عنها من وجوه مختلفة : أولاً من ناحية رائحتها ، فمنها قوىّ الرائحة كالفل والياسمين ، ومتوسط الرائحة كبعض أنواع الورد والقرنفل ، وضعيفها كالأقحوان ، وعديمها كالكثير منها . وليس يتوقف الجمال على الرائحة ، فالرائحة تتصل بالشم ، وهو أقل الحواس قيمة إذا قيس بالسمع والبصر ، بل ربما سمت قيمة الزهرة إذا عدمت رائحتها ، لأن الرائحة مقرونة بالطعم ، فإذا تجردت من الرائحة كان تقويم الجمال للجمال ، كالقطعة الموسيقية والغناء الجميل ؛ فالغناء الجميل ذو المعنى يوزّعك بين لذة العقل ولذة السمع ، والموسيقى الجيدة ينحصر جمالها فى جمال توقيعها ، وعندى أن الجمال المحدد خير من الجمال الموزع .

هذه الأزهار أمامى كأنها جمع من الفتيات الفاتنات متبرجة المجلى ، فأنظر زهرة تلفت النظر فى قوة إلى جمالها فتأسرك حتى لا تستطيع التحول عنها ، جمالها ظاهر بيّن ، واضح جذاب ، كالفتاة التى تملك عليك قلبك ومشاعرك ، قد لا تكون هذه الفتاة أجمل من فى الجمع ، ولكن لها من السحر والفتنة ما يبطل سحر غيرها ، وهذه زهرة أخرى جمالها فى وداعتها وهدوئها ، كالفتاة لا تلهبك ناراً ، ولكن تشعرك حناناً .

وهناك فى زاوية من زوايا الحديقة زهرة منعزلة مستترة لا يلتفت الناظر إليها إلا بالبحث عنها ، كالفتاة الحيية الخجول ، المنطوية على نفسها ، العازفة عن عرض جمالها .

ثم هذه الأزهار تختلف وحيها ، باختلاف نقوشها وألوانها ، فهذه زهرة توحى الطهر والعفاف ، وهذه زهرة توحى النقاء والصفاء ، وهذه زهرة توحى القوة والجبروت ، وهذه زهرة توحى تفتح الرغبة ، وهكذا . فللأزهار لغات ودلالات ، تعجز عنها معاجم اللغات ، إذ كيف تنجح اللغات فى دلالات العواطف ؟ إن اللغة وسيلة قد تكون

جيدة في نقل الآراء والأفكار، ولكنها وسيلة جد فقيرة في نقل العواطف والمشاعر.

وللأزهار دلالتها الخاصة على ما يرتبط بها من أحداث وما تظهر فيه من مواسم. فأزهار الشتاء تدل على الشتاء، وأزهار الصيف تدل على الصيف، وأزهار الربيع تدل على الربيع، ولكل زهرة معنى عند صاحبها يوحي إليه تداعي المعاني؛ فمن رأى طاقة زهر في حفل بهيج ارتبطت هذه الطاقة ومنظرها بهذه الحفلة وبهجتها، ومن رأى زهرة على صدر فتاة جميلة ذكر الفتاة إذا رأى الزهرة، ومن رأى الزهرة في مكان ذكرته الزهرة بالمكان، وكذلك تدل الزهرة دائماً على بيئتها وزمانها ومكانها وأحداثها.

والناس يختلفون في تقويم الأزهار اختلافهم في تقويم جمال الإنسان وجمال الطبيعة؛ وقد روى لنا الكثير عن اختلاف الشعراء في تمجيد بعض الأزهار، فهذا يمجد الياسمين ويفضله على سائر الأزهار، وهذا معبوده النرجس، وهذا هواه البنفسج. وقرأت مرة عن فنان يعشق أشجار الورد وجن به حتى كان إذا جاء موسمه انقطع عن عمله وخرج إلى حدائق الورد يتنقل فيها ويتغزل في محاسنها إلى أن ينتهي الموسم فينصرف إلى عمله.

هذه الأزهار منتشرة حولنا في حدائقنا، تتنوع أشكالها وبهاؤها، من جمال بساطة إلى جمال تعقيد، ومن جمال لون إلى جمال نقش، ومن جمال صارخ إلى جمال خافت، ومن جمال منفرد إلى جمال منتشر، ومن جمال ناعم إلى جمال شائك، وكلها في تنوع جمالها متسقة منسجمة، كأنها موسيقى تنوعت آلاتها وتناغمت ألحانها.

وهذه الأزهار تختلف أعمارها كما اختلفت أعمار كل حي؛ فزهرة سريعة الذبول، وزهرة تطول حياتها ويطول جمالها، ويكاد يكون أجملها شكلاً أقصرها عمراً، كالشأن في الإنسان، قل أن يعمر نابغ ويدوم عبقري، كأن الطبيعة تغار من نبوغه أو عبقريته، أو كأنها تضن به عن أن يكون ثمة جيل فتخترمه ليكون مفخرة دهر.

إني لأعجب لجمال الأزهار من أن يقطفها قاطف أو يعبث بها عابث، وكلما رأيت باقة مجموعة ذكرت من جلبها وجنى عليها. ولئن عذرنا الإنسان يجني على الحيوان والجماد يتمتع بها ويعيش عليها، فكيف نعذره في قطف الجمال وليس له كبير قيمة إلا في مكانه وعلى أغصانه.

وبقدر ما أبتهج بالجمال واكتماله أرثي للجمال وذبوله؛ فأحزن لذبول الزهرة وتناقص القمر وشيخوخة المرأة، ولا يعزيني عن ذبول الزهرة إلا أنها تموت لتحيا، وتذبل لتزهر، وتتناقص لتكمل.

في جمال الأزهار معنى غامض كجمال النساء؛ فقد تبلغ الحسناء أقصى درجات الجمال، ثم لا تملأ قلبك ولا تسلب لبك، وإذا بمن دونها حسناً وجمالاً تأسرك وتستولي عليك وتغمر مشاعرك، كذلك الشأن في أزهار حديقتي؛ هذه زهرة منحية متفرقة، ليست أجمل الأزهار، ولكن هي أحبها إلى نفسي وأقربها إلى قلبي.

إن الشعور الحق بالجمال لا يتجزأ؛ فمن أحب جمال الأزهار أحب جمال النساء، وأحب جمال الطبيعة، ومن لم يشعر بجمال الأزهار فقد الشعور بالجمال عامة، فإن رأيته يحب المرأة فهو استجابة للغريزة لا حب في الجمال.

إن الله خلق الإنسان والعالم ليتجاوبا ويتناغما، فإذا لم يهتز الإنسان لجمال الأزهار فلم خلقها؟ وإذا لم يبتهج بالسماء ونجومها وقمرها وشمسها، وإذا لم يتأثر بالطبيعة وجمالها فلم البحار وأمواجها، والأنهار وخريرها، والجبال الشامخة وجلالها؟ فحيث وجدت العين الناظرة وجد المنظور، وحيث كانت الأذن كان المسموع، وإلا كان سؤالاً بلا جواب، وعيناً تقرأ ولا كتاب.

ليت لستالين وترومان وبيفن وأمثالهم مشاعر يدركون بها جمال الزهر، ويفهمون بها وحيه، ويصغون بها إلى حديثه، ويأنسون بها إلى وداعته ولطفه، إذاً لتغير وجه الأرض وسادت الدعوة إلى السلام، وغلبت بواعث الإنسانية، وإذاً لاشمأزوا من رائحة القنابل وحديث الثورات واشتداد الحروب، ولفكروا فيما يسعد لا ما يشقي، وفيما يحيي لا ما يفني. ولكن عدموا الذوق فاستأنسوا بالبارود، ونسوا الزهور فنسوا أنفسهم، وعبدوا الشيطان فصدهم عن الجمال.

وأخيراً ليت الزمان ربيع كله.

أحمد أمين

بين الإنسانية وأصدقائهـــــا

للأستاذ أبي الحسن علي الحسني الندوي

هذه مقالة للأستاذ أبي الحسن علي الحسني الندوي ، ظهرت في مجلة « صدق » الأردوية ثم نقلت إلى اللغة الانجليزية ، ورأيت أن أنقلها إلى اللغة العربية لما فيها من الحقائق عن الحياة التي تهمنا جميعاً معرفتها .

ترجمة الأستاذ محمد بن رشيد الحسني

تحوي الأساطير الهندية كثيراً من الحكم ، يبدو لنا أن حكماء هذا القطر قد أخرجوا من دقائق الفلسفة في لغة سهلة وأسلوب جذاب ، أو حاولوا نقل الحقائق الجافة إلى الحياة العامة . نحن نستطيع أن نتلقى دروساً قيمة في الفلسفة والحياة بواسطة هذه الأساطير المتواضعة .

ومن الأساطير والحكايات التي حدثتنا بها في الصغر الأمهات وعجائز البيت أسطورة امرأة عفيفة كان جسمها حافلاً بالإبرات السامة وتولت خدمتها الخادمة فنزعت الإبرات فاقتلعتها إبرة إبرة ، وتظاهرت بالشفقة والإخلاص ولكن أبقت إبرات العينين عمداً ؛ فبقيت المرأة تصطلي من الألم لا يطبق لها جفن ولا تكتحل بنوم ، ونحن بصدد هذا الجزء من الحكاية فحسب .

إذا فكرت في الإنسانية وأصدقائها ، ودرست أحوالها وجدت قصتها تشبه قصة المرأة البائسة تمام الشبه ، قد تمزق جسمها بالإبرات السامة التي دخلت في جميع هيكلها فتمتد أيدي الغوث والرحمة إليها لتنقذها ، ولكنها تغفل العينين اللتين لا يقر قرار الرجل إلا بسلامتهما ؛ فلا يتم خلاصها ولا يهدأ بالها ، فتغدو وتروح جريحة القلب كئيبة الروح مضطربة البال ، ثم تتأسف الجهود من قصد وتنقطع من غير أن تكمل مهمتها وتبلغ غايتها .

الإنسانية تمثل الجسم البشري في أعضائه وأجزائه فهي جامعة للنواحي الحيوية بأسرها ، وإنها تنظم الجسم والبطن والرأس والقلب والروح والنسمة ، وتحل بهذه النواحي أنواع من البلاء والشقاء ، وهي إبرات جسمها التي تشق بها وتتبرع على أيديها مرارة الحرمان والألم .

الفاقة والبؤس وفقدان المواد الغذائية الصالحة هي إبرات البطن والمعدة التي تشقى بها الإنسانية وتتعذب ، ومن الشقاء العام البشري ، ومن المعضلات الدنيات أن لا تجد أغلبية البشر الساحقة ما تسد به فاقتها وتشبع به بطنها لسوء تصرف فئة من البشر في توزيع المواد الغذائية أو لعسف حكومة جائرة رغم سخاء القدرة الإلهية وثروة الحقول الفياضة ، وأن لا تجد البشرية حاجتها من المطعم والغذاء بعد أن تعيش الحقول زرعاً وتدر الأرض لبناً وعسلاً .

الإنسان جسد مع الروح ، والجسد يشعر بالحرارة والبرودة فهو لذلك في حاجة إلى الكسوة واللباس ، وقد أنزل الله لباساً يواري سوءات الناس وريشاً ، وألهم الإنسان كيف يزرع القطن ، وكيف ينسج الثوب ، واشتغلت الأيدي العاملة في الحقول والمصانع ، فتكاثرت كميات فائضة من القطن والنسائج ، فمن الجور الفاحش والظلم المبين أن يليهي إسراف بعض الرجال في الملابس أو احتفاظهم بها في صناديق ومستودعات كثيراً من الناس إلى العري ، أو يكسو الأغنياء جدرانهم ، فلا يجد الفقراء من اللباس ما يستر جسمهم ويقيهم البرد والحر .

إن المرء يحمل في جنبه قلباً نابضاً له رغبات وعواطف طبيعية لا ضير فيها ولا اعتداء ، فلا يجوز أن يقف الإنسان سداً في سبيلها ، وقد وهب عقلاً وذكاء ، فلا يجوز لأحد أن يمنعه عن العلم ويحول بينه وبين التفكير ؛ فإذا فعل ذلك فرد أو حكومة كان الإنصاف للإنسان الرعق وتحرير فكره خدمة بارة للإنسانية ، وعملاً يستحق الشكر والثناء .

الثقافة لا تزدهر ، والمدنية لا ترتقى ، وقوى الرجل الروحية والمادية لا تنمو أبداً . إذا كانت في البلاد سلطة مستبدة وحكومة غاشمة ، فترى أن الحكومات الأجنبية والدول المستبدة تستولى على وسائل الحياة وتتولى توزيعها ، فطوراً تستأثر بها وتارة تقسمها قسمة ضيزى ، وأخرى تحول بين الأمة ومنتجاتها وثمرات كدحها وخزائن أرضها ، فتعيش في ديارها عيش الغرباء أو الصعاليك الطرداء ، فلا تلبث أن تخمد عواطفها وتجمد قرائحها وتضيع مواهبها فتكون أمة خامدة خاملة . فلا شك أن الاستعمار أو الاستبداد عدو لدود للإنسانية وظلم عظيم للأمة ، وأن جلاءه عن البلاد نعمة وسعادة تستحق الأمة عليها كل تهنئة .

إذاً فالجوع والعرى والأمية والاستبداد هي الإبرات التي لا تفتأ تجرح الجسد البشرى وتؤلمه ، ومن الواجب إزالة هذه الآفات وتخليص الأمة منها .

ولكن هل هذه الكرب والآلام هي كل آفات البشرية ، وهي إبرات جسمها فحسب ؟ وإذا انتفت هذه الإبرات اطمأنت القلوب واستراحت الأبدان وقرت العيون وصفا العيش وطاب النوم وزالت الهموم والأكدار ورجع كل شيء إلى نصابه ؟ .

لقد كان الخطب يسيراً جداً لو كان ذلك ، ولكن الأمر مع الأسف ليس كذلك ، والواقع لا يؤيده .

إن القوت واللباس والعلم والحرية ليست كل شيء في الحياة وليست دواء كل داء ، إن في جسم الإنسانية إبرات سامة غير الإبرات المذكورة ، وهي تجرح قلبه وتذيب حشاشته . خذ مجتمعاً قد وصل إلى كل مطلوب وقضى كل حاجة في نفسه ، فنال الحرية والاستقلال ، وجمع بين العلم والأموال ، واجتمع له كل ما يمكن من أسباب السعادة المادية والهناء ؛ هل تراه هادئاً مطمئناً لا يشكو ولا يئن ؟ .

الأمر ليس كذلك كما نعرف جيداً ، بل ربما يكون هذا المجتمع السعيد أشد قلقاً واضطراباً وأكثر شكوى وعتاباً من غيره ، فما السر في هذا ؟

سر ذلك أن الإنسان قد يظهر في بطنه الطبعي بطن كذاب ، وهو بطن الجشع والشح الذي لا يزال صائحاً مثل جهنم : « هل من مزيد ؟! » إنه لا يعشق المال لأنه مضطرة إلى حاجاته أو شهواته — على الأكثر — بل قد يكون غرامه له كغاية ونهاية ، هنالك لا يطفئ غلته أعظم مقدار من المال وأعظم مجموع من الدراهم والدينار ، بل يركب رأسه في شدة غرامه وولوعه بالمال ويرتكب كل محظور ومنكر ، لأنه قد فقد الحاسة الخلقية وحرم الضمير والعقل وجن بالمال جنوناً ؛ وأحقر مظاهر هذه النفسية والطبيعة الغريبة السوق السوداء وابتزاز الأموال من كل وسيلة وطريق .

إذا درسنا تاريخ الظلم الخلقى درساً عميقاً ، وفحصنا أسباب الفوضى الاجتماعية والانحلال الخلقى فحصاً دقيقاً ، وفكرنا في رءوس المسائل والمشاكل التي تواجه الحياة القومية والاجتماعية اليوم ، وجدنا أنها لا ترجع إلى الضروريات والحاجات الطبيعية في غالب الأحوال ، بل إلى الرغائب الباطلة والحاجات الكاذبة والشهوات المصطنعة في الغالب ، وهذه الشهوات هي التي تغرى صاحبها بالمحظورات والجنايات ، وتتولد منها أزمات طريفة ومشاكل معقدة في الحياة المادية وفي كل نظام حكومى ، وتحث على الاعتداءات والتدليسات والجنايات والعنف والارتشاء والمقامرة والاكتناز والاحتكار والخداع ، وتتورط لأجلها أعظم الدول والأمم في الفوضوية واللادستورية .

لو بحثت في الأزمات والمشاكل لاقتنعت بأن تعسر مطالب أغذية ساحقة وكثرة الجياع العراة في بلاد ليست هي علة الاضطراب واختلال الحياة الاجتماعية ، إن هؤلاء الجياع والعراة لم يضيقوا على الناس ولم ينغصوا عيش أحد في القطر ؛ أولئك هم الطامحون الكانزون الذين لا تشبع أنفسهم بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ولا تنقطع رغباتهم ، هم الذين ملأوا الدنيا فساداً واضطراباً ، إن قائمة الحوائج الصادقة ليست طويلة جداً كما يتوهم بعض الناس وكما يغالط أكثرهم ، ولكن قائمة الحوائج الكاذبة لا حد لها ولا نهاية ، وهي تستمر في الازدياد والتضخم على مر الأيام والليالي ، وقد تتضخم حتى لا تكفى رجلاً واحداً ثروة هائلة ، بل ثروة مدينة بأسرها .

لماذا هذا الغلاء الفاحش واختفاء الأشياء والتضخم النقدي ؟ ألأن أغلبية البلاد جائعة عارية ؟ لا ! بل لأن شهوة المادة قد طغت وتخطت كل حد ، وبلغ غرام الثراء حد الوله والجنون ، وأعدمت القناعة من الحياة ، وتسرب الصلف والرياء وحب الجاه والزينة في جسم المدنية فأحال الحياة إلى الشقاء وصيَّر الدنيا داراً للعذاب والبلاء ، فتواجه في كل منعطف ومنعرج ارتشاء مسرفاً وسوقاً سوداء وأرباحاً جائرة .

لكن هل ترتكب هذه المحظورات لأن الجوع أو العري قد جاوز حده ؟ لا ! إنها أعمال طبقة فضلت أقواتها وملابسها عن حاجاتها ، واجتمع عندها من الكماليات وفضول الحياة وأدوات الزينة والفخار شيء كثير . إنك لا تجد في هذه السوق السوداء فقيراً لا يملك قوت يومه ولباس جسمه ، ألا إنها لأفاعيل أصحاب اليسار والأموال الذين قد حيزت لهم الدنيا بأطرافها وحذافيرها ، ثم لا رادع لهم عن الخيانة واختلاس أموال الناس .

إن حاجات الإنسان الطبيعية الصادقة محدودة ومن السهل أن يجد كل إنسان في بلاده ما يشبعه ويكسوه وكل ما يحتاج إليه في حياته ، ولكن هل تستطيع دولة من الدول الكبيرة أو شريعة من الشرائع العادلة أن ترضى حفنة من السكان في حاجاتهم الكاذبة ورغباتهم الباطلة ؟ وهل تقدر أن تشبع بطناً واحداً يشكو الجوع الكاذب والذي لا يشبع وإن أكل رزق الناس أجمعين !

وإذا كانت المسألة مسألة الرغبات الخالقة لا الرغبات الصحيحة ، وإذا كانت العلة الاشتهاء الكاذب لا الاشتهاء الصادق ، فهل تقدر فلسفة اقتصادية أو نظام معاشي قد تكفل الطعام واللباس فقط ولا يتعرض للضمير الإنساني ولا يغير نفسية المجتمع وطبيعته والذي يشمل الحس المادي ولا يعدله ، أن يحمل مجتمعاً واحداً على الرضاء والقناعة وهدوء البال ؟ وهل يستطيع كذلك أن يطلق سراح الحياة من الأزمات الراهنة بعد أن أخذت بالخناق وأناخت على المدنية بكلاكلها .

إن الارتشاء والسوق السوداء والغلو في الأرباح والجنايات ليست إلا نتيجة نفسية تدين بعبادة المال والتفاني في سبيله ، ولن يقف هذا الفساد عند حد إذا لم تتغير هذه النفسية ، بل إذا سد باب في وجه فساد تفتح له عشرة أبواب على مصاريعها ، لأن الذهن البشري له نوافذ وأبواب كثيرة ، كلما سد منه منفذ جاش منفذ .

إن علة المدنية الحاضرة وداءها العضال أنها دست سموم الأثرة والشح وعبادة النفس في شرايين المجتمع وعروقه ، فأصبح ضميره لا يؤمن إلا بالفائدة الشخصية والنفع العاجل فيرتكب أكبر رجل في هذا المجتمع أشنع جريمة ، فإذا اؤتمن خان وإذا عاهد غدر وإذا حكم جار ، وإذا كان وزيراً آثر ذوي قرابته وأفاد نفسه وعشيرته وأصدقاءه ، وأضر بأمته وحكومته ، وإذا كان موظفاً ماطل وتساهل وأبطأ في العمل حتى يرضخ له شيء من الترهيبات فينشط ويخف للعمل ، وإذا كان ممثلاً في مجلس أو عضواً في هيئة لم يمثل إلا شخصه ومصالحه ولم يفكر إلا في فائدته فيوقع لأجله بلاده وشعبه في خسارة فادحة ، وإذا كان تاجراً أقام السوق السوداء على قدم وساق ، وارتكب لزيادة ثروته وتضخيم ماله كل ما تأباه الفضيلة والمروءة ويمنعه القانون ، فيجوع لأجله ألوف من الرجال والأطفال والنساء وقد يراق الناس فيلقى على مئات من الفقراء أثقالاً من الديون الفادحة ، فيحتاجون إلى ملح واحد وقرص واحد ولا يجدون إليه سبيلاً .

وغلب شيطان الأثرة على الدول والأحزاب بعد أن كان مستولياً على الأفراد والرجال ، فالأحزاب السياسية مجنة في الأثرة والعصبية الحزبية ، أما الجمهوريات الأوربية والأمريكية فقد جرت منها الأثرة مجرى الروح ، فتدوس الدويلات الصغيرة بقدمها وتغبن حريتها وكرامتها وتحرمها متعة الحياة وتجعلها لها مستعمرات وأسواقاً لبضائعها ومصانعها ، فحولت هذه الأثرة العالم كله إلى متجر أو كور حداد ، لا ترى فيه إلا تعاطياً في الدرهم والدينار أو سحائب من النار والشرار ، والأرض كلها إلى ساحة حرب واسعة وقد استهان أصحابها في سبيل منافعهم بالعهود والذمم ، واستحلوا أشنع جريمة وأكبر جناية ، إذا اقتضت ذلك ظروف وأحوال ، فيقتل ألوف من البشر بأمرها ، وتسيطر دولة على دولة أخرى ضعيفة بأسماء مختلفة وعلل واهية ، وتبلع أمة لأمة أخرى بثمن بخس

دراهم معدودة كالضأن والنعم، وتنقل من يد إلى يد كالرقيق والجماد، وتقطع بلاد موحدة — يجمع بينها الدين واللغة والحضارة والقومية — قطعاً كالثوب، هذه الأثرة القومية الأوربية التي هاجت العرب ضد الأتراك — وكلهم مسلمون، فلما أتموا دورهم في الحرب الكبرى وكتبوا سطور نصر الحلفاء بدمائهم أشاحوا عنهم وتناسوهم واقتسموا بلادهم كالمال السائب أو تراث ميت، حتى إذا أرهقتهم الأحوال واضطروا إلى منح الاستقلال أقاموا في سوريا الصغيرة أربع دويلات مستقلة ثم زينوا لليهود «الوطن القومي» وألهموهم تأسيس دولة مستقلة وقدموا لهم كل مساعدة، حتى إذا أصبح وطن اليهود أمراً واقعاً وقامت دولة إسرائيل تصادمت مصالحهم وأهواؤهم وتضاربت الأثرة بالأثرة، وما مسألة فلسطين اليوم، وما تعقدها والتواؤها إلا نتيجة أثرة بريطانيا وأمريكا وروسيا القومية ونتيجة تنافسها في استغلال الشعوب ومنابع ثروتها والسيطرة على الشرق الأدنى! كذلك حدث في الهند، فقد استغلتها بريطانيا وحلبت ضرعها قرناً! فلما أخذت بالجد وألجأتها الأحوال الدولية إلى [illegible] الاستقلال [illegible] هذه البلاد التي حلبت ضرعها [illegible] فأشعلتها ناراً على أهلها ولم تغادرها حتى جعلتها مذبحاً يقتل فيه بعضهم بعضاً، ولم يكن ما صدر من أهل الهند سنة ١٩٤٧ بعد الاستقلال إلا بإلهام الأجنبي وتدبيره الخفي ونتيجة الأثرة والتربية الخلقية التي نشأ عليها أبناء هذه البلاد قرناً كاملاً في ظل الإنجليز والتي أخذتهم بها السياسة الإنجليزية والفلسفة الأوربية والنزعة الجنسية التي جاء بها الأوربيون.

ثم تلك الأثرة الجاهلية قد بثت في العالم كله وفي نواحي البلاد كلها طبيعة المطالبة بالحقوق والتهاون بالواجبات، فقام كل واحد في المدنية يطلب ما له على غيره ولا يؤدي ما عليه لغيره، ونشأ الناس ومردوا على التطفيف، إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون، فأحدثت هذه العقلية الغريبة في جميع الأرض نزاعاً بين الأفراد وعراكاً بين الأحزاب وجدالاً بين الطبقات وصراعاً بين الجماهير والحكومات، وظهرت ثورة عنيفة في العمال والتجار والفلاحين والموظفين ضد الحكومات، وعمت الإضرابات والتهديدات والاضطرابات في المدن، وكل يبالغ في حقه ويحق في المسألة ويتثاقل عن واجبه ويخون في وظيفته، حتى صارت الحياة سلسلة من مطالبات ومصارعات، وأصبحت الحياة حبلاً ممدوداً يتجاذبه الفريقان من طرفيه.

مهما بالغنا في ذم هذه الأثرة والتنفير منها وتوجيه اللوم إلى هذه المدنية وقادتها، فإن سبب هذه الأثرة الجارفة والمدنية الشقية بأهلها واضح جلي. فإذا كان الاعتقاد السائد أن لا حياة بعد هذه الحياة الفانية ولا نعيم بعد هذا النعيم الزائل والعهد الراحل، وإذا كان أدبنا وفلسفتنا وبيئتنا كلها لا تحدثنا إلا عن اللذة وحدها، وتخضع لأصحابها خضوع الذليل المسكين وتثني عليهم وتحث على اقتفاء آثارهم وتقليدهم في الحياة، وتنكر كل حقيقة دينية وخلقية، وإذا ماتت فكرة الحياة بعد الممات وإذا تركت القيم الخلقية والحقائق الفاضلة مكانها للقيم المادية الحسية، وإذا تضخم الجسم والبطن على حساب القلب والضمير حتى وسعا الحياة كلها وحجبا الحقائق الغيبية والمثل الروحية، فكيف لا يصبح الرجل في هذه الحياة مادياً محضاً وكيف يؤخر ربح حياته الحاضرة وثمراتها العاجلة للموهوم؟ وكيف يستبقي ويدخر لذته وهناءه للآخرة التي لا يؤمن بها؟ إنه إذا لم يؤمن بالعزيز الجبار العليم الخبير الديان المهيمن الرقيب الذي هو مالك يوم الدين والذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فكيف يتردد في استخدام الوسائل التي تهيء له عيشاً رغيداً وجاهاً عريضاً ومالاً ممدوداً.

ولما حصرت الفلسفة السياسية المادية حياة الإنسان في القومية والوطنية واستخفت بكل من يعطف على بني آدم عامة ويواسيهم وكل من يؤمن بالحياة الآخرة الخالدة وكل من يحب الإنسانية ولا يتقيد بوطن أو جنس، أصبح الإنسان — إذا ارتفع من الأثرة الشخصية والدافع الفردية — لا يفكر إلا في مصالح وطنه ومنافع شعبه، وقد تصل به هذه الوطنية والقومية إلى الاحتلال والاستعمار والقسوة والهمجية، فيرى من واجبه الوطني والقومي المقدس ومن وفائه لأمته

ومذاهبه في سبيلها أن يؤسس دولة أمة على أنقاض دولة أمة أخرى وعلى أشلائها . وهذه هي الوطنية التي حدت بأوربا المتمدنة إلى استعمال كل قسوة ووحشية في توسيع ممتلكاتها وإخضاع الأمم والشعوب لدولها وسياستها حتى انتهى بها ذلك إلى استعمال المدمرات والغازات السامة وإلقاء القنابل الذرية في الأخير واختراع (Hydrogen Bomb) وأشد منها أيضاً .

هذه الأثرة بمعناها الواسع هي آفة المدنية الحاضرة وجائحة زروعها ، فما دامت هذه الأثرة روح الاجتماع والسياسة وأساس المدنية والأخلاق ، فلا تفيد التنظيمات والإصلاحات والمشاريع الاقتصادية والعمرانية الجديدة ، ولا تغني شيئاً ، وإذا كانت الأثرة متغلغلة في أحشاء المجتمع جارية مجرى الروح وهي التي تملي على الناس سياستهم وسلوكهم ، وإذا كان الأفراد في أمة يتنافسون في الشهوات ويتهافتون على اللذات ويتطاولون في القصور والناطحات السحاب ويتسابقون في اقتناء أفخر السيارات ويتباهون في أسباب الترف والرخاء ومظاهر العظمة والثراء ، وإذا كانت فئة الحاكمين المتمتعين بالسلطة تتضخم كل يوم ، لم تجد تلك الأمة غناء ووسائلها وتنظيمها الاقتصادي ، ولم تكفها مواردها ومنابع ثروتها ، مهما كانت واسعة ضخمة ، ولا يفيدها أن تمطر السماء ذهباً وتلفظ الأرض خزائنها — من مناجم الذهب ومنابع البترول — فإن كل ذلك لا يفي بحاجاتها المختلفة المتجددة ولا يغني فقراءها ، ولا يشبع جياعها ولا يكسو عراتها ، فترى فيها مع ثروتها الهائلة وأموالها الطائلة فوجاً من الفقراء لا يجدون من الطعام ما يقيم صلبهم ومن اللباس ما يكسو عورتهم ، أهذا الجوع القاتل والعري الفاضح الذي ترى مناظره المخجلة على الشوارع العامرة بالقصور المزدحمة بالسيارات لفقر البلاد وضيق مواردها وقلة وسائلها ؟ إذاً فمن أين هذه الناطحات للسحاب من القصور والبارات الفارهة من السيارات ؟ ولماذا هذه الجولات إلى عواصم أوربا وأمريكا ؟ لا والله ليس ذلك إلا لهذه الأثرة — قاتلها الله — التي حالت بين الفقراء وبين حظهم من العيش وحقهم من الحياة والتي ابتلعت موارد البلاد وأموالها فلم تترك للفقراء ولا للبلاد شيئاً .

لقد أصبح المجتمع الإنساني اليوم جسماً متورماً يحسبه الجاهل ، وما هو بسمين ، إنما هو ورم غير طبيعي ، فقد بلغ غلواً بعيداً في الزخارف والكماليات وضخامة الميزانيات ، وقلت الأمية وشاع العلم في كثير من الأقطار ، وتساوى الناس في المعيشة وأسبابها في بعض الأقطار أيضاً — كما يقولون — ولكن الواقع أن هذه اللوحة التي تراها لائحة — لوحة المدنية والمجتمع الإنساني — قد أصابتها دودة أكلت كبدها ونخرتها ، فهي منسأة نخرة جوفاء ، وهذه الدودة الخبيثة هي الأثرة التي تزين للإنسان الظلم وتحمله على الاعتداء ، فإذا بقيت هذه الدودة تأكل كبد المجتمع وتنخر جسمه حبطت الجهود الإصلاحية ، وضاعت المشروعات الاقتصادية ، وما دامت هذه الدودة تعمل عملها فلا تنفع الأمة «الاشتراكية» و «الشيوعية» ولا تؤثر في الحياة تأثيراً كبيراً ، لأن أمة تنشأ على الأثرة وحب المال المفرط وحب الحياة الزائد ، لا تمتنع من الظلم والاعتداء لأجمل تنظيمات اشتراكية وتشريعات مدنية ، فإن هنا ميادين غير ميدان الاقتصاد يستطيع المرء فيها أن يظلم أخاه ويغتصب حقه ، وإذا لم يستطع ذلك فإنه يقدر أن يؤذيه ويماكسه على الأقل ؟

فلا طريق إلى العدل والسلام والهناء المتكامل إلا أن تقتلع جرثومة الأثرة والشح والاعتداء من قلوب الناس وعقولهم ، وذلك لا يقدر عليه إلا الدين المسيطر على الروح والقلب ، الدين الذي يحث على الاقتصاد في المعيشة والزهد في الدنيا ، ويمنع الإنسان من الاسترسال في الآمال والأماني والانهماك في اللذات والشهوات والإسراف في الأكل والشرب ، ويحض على الإيثار على النفس مع الخصاصة وإنفاق العفو من المال ، ويحض على طعام المسكين ، والحدب على اليتيم ، وينعى على الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ، ويأكلون التراث أكلاً لماً ، ويحبون المال حباً جماً ؛ ذلك هو الدين الكامل العادل الذي ينقذ الإنسانية من كل بلاء ، ويقيم عوجها ، ويرتق فتقها ، ويأسو جراحها .

إن الشعوب أو البلاد التي استقلت في آسيا في الزمن الأخير ، لا تزال معرضة عن حقيقة ناصعة ، وهي أن رفاهة البلاد وسعادة الشعب ليست من كثرة الوسائل والآلات واكتشاف موارد المال ومنابع الثروة وازدهار الصناعة والزراعة وكثرة المصانع وتقليد أوربا وأمريكا في تنظيماتها وإن كان لا بد من ذلك ، ولكن الرفاهة الحقيقية في صحة المقاصد والغايات وحسن استعمال الوسائل والآلات وفي اعتدال الحياة وقلة الحاجات وحب العدل والمواساة . ولن يحصل هذا من طريق الآلات والماكينات ومن طريق التنظيمات الاقتصادية والنظم السياسية ، ولكن من طريق التربية الدينية وتأثير الدين الصحيح ، والتعليم الصحيح . ولئن كانت الوسائل والآلات والتنظيمات ضامنة برفاهة البلاد وسعادة الأمة وهدوء بالها لكانت أوربا وأمريكا وروسيا أرغد بلاد الله ، وأطيبها عيشاً ، وأقلها كدراً ، وأنعمها بالاً ، وأرضاها بالحياة ، وأبعدها من القلق والاضطراب ، والشكوى والعتاب ، ولكانت جنة في الأرض لا خوف فيها ولا حزن ، ولكن الأمر بالعكس ، فشاكل هذه البلاد وأزماتها وصراع الأحزاب والنزعات فيها ، وتبرم الناس من حياتهم وعدم رضاهم عن مدنيتهم ، وبحثهم عن هدوء البال وسكينة القلب حتى في الشرق وأدلته أمر معلوم .

إنا لا ننكر الفضل للأيدي التي تحاول إراحة البشرية المتعبة وإسعافها بإزالة تلك الإبرات من جسدها ؛ ولكن لا سبيل إلى الطمأنينة الدائمة والسكينة التامة إلا بقلع إبرات العيون ، إن الحصول على الحرية والاستقلال عمل جليل وهدف سام جداً ، والجهاد في سبيل مكافحة الفقر والجوع والعري والأمية والجهل ، وإلغاء النظام والاتجاهات الاقتصادية والاجتماعية ، والحصول على وسائل الحياة حسنات لا تنسى ، وأياد بيضاء لا تنكر ، ولكن الإنسانية أوسع من هذا ، وإن الإنسان أكثر من المعدة والبطن والجسد والعقل ، إن في جسده مضغة لو صلحت صلح الجسد كله ، ولو فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب ! فالمهم الأهم هو صلاحه وهدوؤه ، واطمئنانه وحياته ! فهل فكر المفكرون في هذا ؟ وهل وجدوا إليه سبيلاً ؟!.

قد تسابقت أيدي الإنسانية الرفيقة لقلع إبرات الجسد ، وقد عنيت بإبرات البطن والمعدة فاقتلعتها وأراحت الإنسانية منها ، ولكنها ما فطنت لإبرات العيون التي هي أصل البلاء وجرثومة الشقاء ، والإنسانية تئن أنين الثكلى وتهتف بأبنائها وأنصارها وتنادي : إليّ يا أبنائي البررة ، أسعفوني وخلصوني من العذاب الذي أتجرعه ولا أكاد أسيغه ، ويأتيني الموت من كل مكان ، وما أنا بميت ، وأريحوني من وجع الفؤاد وألم العين الذي شرد نومي وأقلق بالي ، وامسحوا ما بي من علة حتى أعيش قرير العين ناعم البال مطمئناً .

فهل من مجيب ؟!.

(لكنو ، الهند) محمد رشيد الحسني

في ضوء الصباح

خبرة الســـــنين

للدكتور زكي نجيب محمود

سئل سوفوكليز الشاعر المسرحي اليوناني مرة ، وكانت السن قد بلغت به مبلغ الشيخوخة : « ماموقفك الآن إزاء الحب يا سوفوكليز ؟ ألا تزال قادراً عليه ؟ » فأجاب : « صه ! نشدتك الله لا توقظه في قلبي من جديد ! فكم يسعدني أن أراني قد فررت من حبائله ، فأحس كأنما فررت من مستبد متوحش مجنون ! » .

فإذا جعلنا لفظة « الحب » في هذه العبارة رمزاً يشير إلى العاطفة في شتى ألوانها : من غضب شديد وحزن شديد ومقت شديد وحقد شديد وطموح شديد وحماسة شديدة ، إلى آخر هذه العواطف التي يحتدم أوارها ناراً في صدور الشباب ، وتبرد نارها في صدور الشيوخ ، ثم إذا اعتبرنا « سوفوكليز » في هذه العبارة ينطق بلسان الرجل إذا تقدمت به السن ، كان لنا أن نضع السؤال والجواب السابقين في هذه الصورة الآتية :

— في أي شيء جوهري يختلف الشيوخ عن الشباب ؟ .

— في برودة العواطف بعد اشتعالها .

* * *

وفي برودة العاطفة تتلخص خبرة السنين ؛ فالشيخ المجرب الذي خبر الأيام وعرك الحوادث لا يقف نفس الموقف الذي يقفه الشاب إزاء مشكلة بعينها ، فلا يغضب أو يحزن أو يثور حين يغضب الشاب أو يحزن أو يثور ؛ ليس الفرق بينهما اختلافاً في الذكاء ، لأن علماء النفس يحدثونك حديث اليقين ، بأن ذكاء المرء لا يزيد بعد سن السادسة عشرة أو السابعة عشرة ، وإنما الذي يزيد بعد ذلك في المرء كلما تقدمت به الأعوام ، هو الخبرة لا درجة الذكاء .

وكذلك ليس كل الفرق بينهما هو أن خبرة بعينها يصادفها الشاب لأول مرة في حياته ، على حين يصادفها الشيخ للمرة العاشرة أو العشرين ، فيكون الفرق بينهما اختلافاً في عدد الخبرات ، مما يمكن الشيخ أن يتصرف في كل موقف على غرار ما تصرف في المواقف الشبيه به فيما مضى ، ولا يجد الشاب في خبراته السابقة ما يقيس عليه ، فيتخبط في خطاه ويضل سواء السبيل .

أقول إن الفرق بين الشيخ والشاب ، حين لا يغضب الأول ويغضب الثاني إزاء موقف معين ، أو لا يحزن الأول ويحزن الثاني ، ليس هو اختلافاً في درجة الذكاء ، بحيث يرى الأول ما لا يراه الثاني ، ولا هو اختلاف في عدد الخبرات السابقة فقط ، بحيث يجد الشيخ دائماً في خبرته من السوابق ما يقيس عليه الموقف الراهن ، ولا يجد الشاب في خبرته شيئاً يهتدي بضيائه ؛ إنما الفرق الجوهري الهام بين الشيخ والشاب ، هو برودة العواطف عند الأول ، واحتدامها في الثاني ؛ وهذه البرودة هي ما نعنيه بخبرة السنين .

لقد مات لي عمّان ، جاء موت الثاني بعد موت الأول بما يقرب من عشرين عاماً ، وشهدت موقف جدتي في الحالتين ، فكأنما شهدت امرأتين مختلفتين أشد ما يكون الاختلاف بين الناس ؛ شهدت في المرة الأولى أمًّا جزعت على موت ابنها جزعاً لم أشهد له مثيلاً في كل من رأيت من الأمهات اللائي ثكلن أبناءهن ؛ شهدت عندئذ أمًّا

لا يكاد ينقطع لها بكاء ، تهيم على وجهها أحياناً في شوارع القرية صارخة نادبة لادمة ، وتصوم عن الطعام أياماً ، فإن أكلت تعمدت ألا يكون طعامها من أطيب الطعام ؛ وكثيراً ما كانت تذهب إلى قبر ابنها حيث تقضي اليوم كله والليل كله ، وتأبى أن تفترش غير الحصير الغليظ الخشن ، على أن تكون السماء غطاءها ؛ وألد أعدائها هم أولئك الذين يتقدمون إليها بالنصح أو بالتعزية والمواساة ، لأنهم إن فعلوا كان معنى ذلك عندها قصورهم عن إدراك المصاب بكل هوله وفداحته .

ثم شهدت جدتي هذه لما مات ابنها الثاني ، وكانت قد تقدمت بها السن عشرين عاماً تقريباً ؛ مات عمي هذا في القاهرة ونقلنا جثمانه إلى القرية حيث كانت تقيم جدتي ؛ وحمل النعش إلى بهو الدار ، حيث رأيت جدتي واقفة في سوادها ، وكان الليل قد انتصف والسكون شاملاً يخيم على أطراف القرية جميعاً ، والأضواء خافتة في الدار حتى كاد الأشخاص يتحولون أشباحاً ... ووقفت جدتي لحظة شاخصة ببصرها إلى النعش بعد أن وضعه حاملوه في أركان متقابلة في بهو الدار ، ووقفت لحظة صامتة لا تتحرك ولا تنطق ؛ فلم يسعنا إلا الوقوف معها في صمت خاشعين ، ثم صرخت صرختين ، تنطق فيهما بلفظة « يا ولدي » .. وكان ذلك كل ما أبدته جدتي من علامات الجزع ؛ جلست هادئة في المأتم ، لا تصرخ ولا تبكي ولا تنتحب ولا تلطم صدراً ولا تمزق ثوباً .

فكان الفرق بين موقفها في المرة الثانية وموقفها في المرة الأولى ، هو خبرة السنين .

ولما كان التعليم هو بمثابة اختصار الزمن في تحصيل الخبرة التي تتطلب زمناً أطول بغير تعليم ، رأينا هذه العواطف الحادة أقل حدوثاً في المتعلم منها في الجاهل ؛ وقل ذلك بعينه في الأمم بصفة عامة ، فالأمة التي ارتفع فيها التعليم أقدر من غيرها على التخلص من هذه العواطف الشديدة على اختلاف أنواعها ، أو بعبارة أخرى : بردت فيها العاطفة وازداد العقل رجحاناً ؛ فلا تبلغ عاطفة الأبوة أو عاطفة الأمومة هذه الدرجة من الهوس التي نجدها في الأمة المتأخرة ؛ ولا يبلغ حزن الوالدين على فقيدهما ما قد يبلغه في الأمة المتأخرة من درجة الجنون ؛ ولا ترى فيها علائم الغضب الشديد والغيرة الشديدة ، بل لا ترى فيها علائم الفرح الشديد .

إن العاطفة الحادة كائنة ما كانت ، نوعٌ من الفرملة الخلقية ، تزداد مع الرعونة وتقل مع رجاحة التفكير ؛ ولعل أهم ما يؤخذ على اليونان في تصورهم لآلهتهم ، أنهم صوروهم كائنات تنفعل بالعواطف كما ينفعل البشر ، فيضحكون ويحزنون ويحقدون ويتنافسون ويغضبون ؛ أما الإله في الديانات الرفيعة فيرشك أن يكون تفكيراً خالصاً لا عاطفة فيه ؛ وإذا أراد إنسان من البشر أن يعلو على سائر الناس في مكانه ، كالملك في الاحتفال الرسمي ، أو كالقاضي في ساحة العدل ، خلع عن نفسه مظاهر الخفة والطرب والحزن والغضب وما إلى ذلك ، وبدا للناس كأنما هو عقل بغير عاطفة .

ذلك أن العاطفة معناها نقص في قوة التفكير ؛ فانظر إلى ما شئت من أوضاع الحياة أو جوانب الطبيعة نظرة عقلية علمية ، تر العاطفة قد امحت آثارها . انظر إلى الحب — مثلاً — نظرتك إلى السمك يبيض ويفقس له البيض ، وانظر إلى « المرأة » و « الفاتنة » نظرة عالم التشريح إلى الجسم الإنساني ، وإلى « الزهرة » و « الرائعة » نظرة عالم النبات وهو يدرس أجزاءها وإلى أي نوع من الزهر تنتمي ، وحدثني بعد ذلك ماذا بقي لك من عاطفة .

إن الشيخ إذا تعلم من خبرة السنين ، تعوّد برودة العواطف ، فإن فقدتْ لذائذه تبعاً لذلك ، فقد فقدتْ كذلك آلامه ؛ ولست أتردد لحظة — إذا كان لي الخيار — في أن أوثر القلة منهما معاً على الكثرة منهما معاً ؛ ثم إن الشيخ لم تعد له لذة الحب الجامحة كما يتمتع بها الشاب ، لكنه كذلك مستريح البال من آلامه وأوجاعه .

ودونك شعراء الحب فانظر كم قصيدة قيلت في نعيم الحب، وكم قصيدة قيلت في جحيمه! لئن كان الشباب يعرف ما الحب، فالشيخوخة تعرف كيف تكون الصداقة، وما الصداقة إلا حب هدأت فيه العاطفة وزالت عنه شرورها.

التخلص من العاطفة الحادة هو — كما قال سوفوكليز — «فرار من مستبد متوحش مجنون». فأنت مستبد برأيك إذا سيّرتك العاطفة استبداداً يستحيل معه الوصول مع خصمك إلى اتفاق؛ وإن شئت فانظر إلى فريقين اختلفا في عاطفتهما الوطنية، وفريقين اختلفا في نظرية علمية، فالسبيل عند المختلفين في الحالة الأولى هو القتال، إذ لا سبيل إلى مفاوضة أو مداولة أو نقاش، والسبيل عند المختلفين في الحالة الثانية هو الإقناع، إذ لا ضرورة إلى قتال.

وأنت متوحش إذا احتكمت إلى عواطفك في حكمك على الناس والأشياء، لأنك عندئذ ستحب هذا وتكره ذاك على غير أساس، إلا ما يملي عليه الحيوان الأعجم وكراهيته؛ إن الصبي يريد الشيء بغرائزه وعواطفه أولاً ثم توحي له الأهواء أنه أراد الحق فيما أراد؛ والعكس أرقى في مراتب التطور البشري، وهو أن أرى أولاً أن الشيء حق دون تدخل من العاطفة والهوى، ثم بعد ذلك أدرّب نفسي على حبه.

وأنت مجنون حين تمسك العاطفة زمامك، لأن الجنون هو أن تأخذ بما في رأسك من أوهام، متحدياً بذلك الواقع المحسوس! وليست العاطفة عاطفة إذا لم تكن تجاوز الواقع المحسوس؛ فيرى «العاقل» في النهر ماء يجري في منخفض من الأرض، أما «العاشق» فقد يراه كائناً حياً يهمس إلى الشواطئ والزوارق همسات الغرام!

الاتزان الواقعي في هدوء بغير صخب العاطفة وهوسها — هذه هي خبرة السنين! فالرجل طفل غِرّ مهما تقدمت به الأيام — إن ظلت تعصف به عواصف العواطف الهوج؛ والشاب شيخ مجرب مهما صغرت أعوامه، إن نحّى الدخان عن نيران الحوادث ليراها على حقيقتها...

لقد كنت أنظر مع صديقي إلى ألعاب بهلوانية أجاد فيها اللاعبون، حتى إذا ما فرغوا من ألعابهم، صفق الناس تصفيقاً يحرق في الأكفّ جلودها، وجلستُ ساكناً لم أصفق، فسألني صديقي: لماذا لا تصفق مع الناس؟ فأجبته قائلاً: إنها خبرة السنين.

زكي نجيب محمود

معرض الفن الاسبانى

للأستاذ عبد القادر الصاحي

يعتبر معرض الفن الأسباني — بعد أوركسترا فينا فيلهارمونيك — أكبر حدث فني في بلادنا في هذه السنوات الأخيرة. فقد جاء حافلاً بالآثار الفنية الممتازة، جامعاً لمختلف المدارس وشتى الاتجاهات.

ويحتل جويا مكان الشرف في هذا المعرض، كما أنه من الناحية التاريخية أقدم من عرض لهم. وتتكون الرسوم التي عرضت له من صور لوحاته المشهورة التي حفرها بماء الفضة على النحاس، والتي تتألف من أربع مجموعات: «النزوات» وهو يهجو فيها المجتمع الأسباني الذي كان قد تطرق إليه الفساد، ويهدد معايب السلطة الحاكمة في سخرية لاذعة.



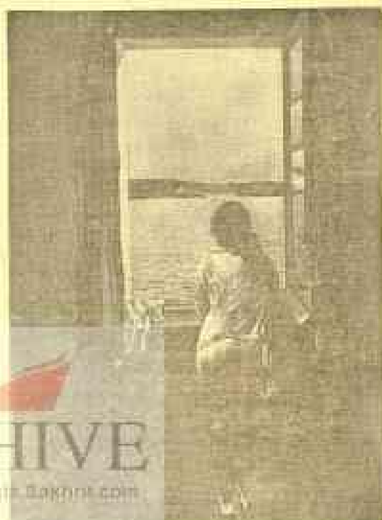
الأسبان شعب متدين، ولذا فإن الرسامين يحتفون في إبراز مظاهر الورع والتقى كما نرى ذلك في صورة «ناسك في الكنيسة» للرسام سوتومايور

و «الأمثال» وهي رسوم عجيبة وليدة مخيلة جامحة، حتى لكأنها هذيان رأس محموم. فنشاهد فيها شياطين وسحرة ورجال دين مرائين وغواني راقصات وأحياناً عارية. و «مصارعة الثيران» وهي تصور تصويراً واقعياً أحب الملاهي لدى الأسبان. فكم من لطمات هائلة وطعنات رائعة، وكم من خيول راكضة كالسهام المارقة، ومصارعين تحصرهم وتنقض عليهم الحيوانات الثائرة. وأخيراً «ويلات الحرب» وقد أوحى إليه بها غزو جيوش نابليون لإسبانيا، وحرب الاستقلال التي تلت ذلك ودامت أعواماً تربو على الستة.



جويا

وهي سلسلة من المشاهد البشعة للمذابح الدامية ، حيث نرى نساء هتكت أعراضهن ، وبقرت بطونهن ، وجثثاً مدلاة من جذوع الأشجار ولم يحل وثاقها ...



الأسباني بطبعه واقعي . وقد انضم الرسام سلفادوري دالي في أول الأمر إلى حركة السيريالزم ، ثم غلبته طبيعته الأسبانية فارتد إلى المذهب الواقعي ، كما نرى في صورة « امرأة بالنافذة » ، وهي من أروع اللوحات في المعرض

وإنه لمن العسير عندما يشاهد الإنسان هذه الرسوم الغريبة ، ألا يتساءل عن صاحبها وسيرته ! وفي الحقيقة لقد كانت حياة جويا ، مثل رسومه ، حياة مضطربة صاخبة . ولقد كانت له قامة فارعة ، وقوة خارقة ، ومهارة فائقة في الملاكمة والمبارزة ، وقد أزهق أرواحاً في مشاجراته ، وعمل مصارعاً للثيران اشتهر بخفته ورشاقته ، وأخذ يتنقل من بلد إلى بلد ومن قطر إلى قطر . واختطف في إيطاليا فتاة أولع بها من الدير حيث وضعها أهلها .

وعندئذ ، بعد فراره وعودته إلى بلاده حيث اشتهر بفنه ، أوثق الصلات مع أمراء إسبانيا ونبلائها . ولكنه كان يمل صحبتهم ويعود إلى الحانات والسقائين يسامرهم ويلعب الورق معهم .

وكان جويا أباً لعشرين ولداً شرعيًا ، ومع ذلك كنت تراه يقفز من حلبة المصارعة إلى خدر سيدة ، ومن هنالك إلى « الاستديو » ليسجل طيشها ونزقها . وكان ينحني في أدب واحترام أمام السادة الكرام الذين قدموا ليصورهم ، ثم يشرع بعد أن يقودهم إلى الباب ، في تثبيت نظراتهم



يرمز مذهب الفن التكعيبي cubisme ومذهب « ما وراء الحقيقة » surréalisme إلى الفنان بيكاسو الأسباني الذي هاجر من بلاده وعاش في فرنسا حتى أصبح الآن فناناً عالمياً . ولكن الصور المعروضة له هي مما رسمه قبل أن يستحدث مذاهبه الحديثة العجيبة ، وفي هذه الصورة « المهرج » صور بيكاسو أروع تصوير ما يلوح على وجوه تلك الفئة التي تضحك الناس ، من حزن وكآبة

البديعة بريشته أو إبرته ، وإبرازاً للمظهر الفارغ للثروة والأبهة الذي يعيشون فيه .



يحتفل فنانو الأندلس بنساء إشبيلية اللاتي يجمعن بملامحهن الشرقية وعاداتهن الغربية ، وها هو ذا صورة أخرى لهن في حياتهن اللاهية العابثة في لوحة « نساء من غرناطة يشهدن مصارعة الثيران »

ولهذه الرسوم إلى جانب دلالتها الفنية — حسبانها الثورة التي كانت تعتمل في نفس الفنان ازاء بلاده التي عمها وسوس الفساد ينخر فيها — قيمة تاريخية ، إذ تنعكس فيها كل اسبانيا ، عاليها وسافلها ، بصبغتها المحلية ، وقد رأينا مصادر الوحي المختلفة التي كانت تستمد منها مادتها . وقد حفظت لنا إلى الأبد — في الوقت الذي أوشكت فيه أن تندثر — آثار ذلك العصر الذي عاش فيه جويا بالملامح والحيوات والأزياء ، وخلفت عالماً بأكمله من مصارعي الثيران والغانيات والرهبان والمهربين ورجال الحفظ والسراق .

ولقد انتهت المدرسة الاسبانية بموت جويا ، وأخذ البعض يتأثرون خطاه في اتجاهه الرومانتيكي ، والبعض الآخر ينحون نحو المدرسة الكلاسيكية الحديثة التي كان يتزعمها الفنان الفرنسي دافيد . ثم لم يلبث الفن في اسبانيا أن سار بعد ذلك مع مختلف التيارات ، وخضع لشتى الاتجاهات في المدارس الأوربية المتنوعة ، كما ترى ذلك في الصور المنشورة .

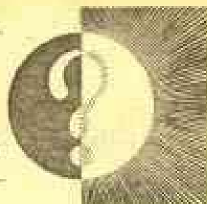
عبد القادر السماوي

خواطر أدبية :

إليها ..؟

احمل الشوق يا نسيمُ إليها
أنت أذكى ما مرّ في أذنيها
واصطحب قبلة الوفاء وأقبل
برقيق الهوى على شفتيها
لا تعاتب شعورها فشعوري
ثار في بعده على صدغيها
ليتني يا نسيم كنت نبياً
أطلق الشوق في لظى وجنتيها
أتلقى ذكراها باشتياق
فألاقي سهم الشقاء لديها
في رجائي ولوعتي وحنيني
وأنيني شواهد لي عليها
إن سألتني هبات أسار هواها
كيف يسلو من كان طوع يديها ؟
هي دنياي راحتي وهنائي
أو شقائي فالقلب في راحتيها
أنا في قربها كبعدي عنها
أشتكي الشجون منها إليها !!

(بغداد) محمد الورد



كيف

الطبيب يقرأ الكف

للأستاذ محمد صفوت محي الدين

إن الطب الحديث لا يعتمد في فحصه اليد على الكف وحدها، ولا يعتمد أيضاً على خط الحياة وخط القلب وما يرسم قراء الكف من خطوط، بل يعتمد على أجزاء اليد وأوجهها جميعاً، وقد وصل في هذا إلى نتائج لا تقبل الجدال، أثبتها التشريح كما أثبتها الإحصاء، فإذا كان قارئ الكف يستطيع أن ينبئك بما قد مضى لك من حياة وحب، وبما قد بقي لك منهما، كاذباً مستوحياً دجله وخياله، فإن الطبيب الفطن هذا كله صادقاً بطرقه العلمية مستوحياً في هذا العلم والعلم وحده.

فهو في إنبائه بحظك من الحياة يستوحي تأثير بعض الأمراض على اليد قبل الفحص، وفي وقته وفي إنبائه بحظك من العاطفة والحب يعتمد على تأثير نقص الهرمونات، أو زيادتها على حجم اليد وهيئتها من البدانة والنحول؛ فإذا علمنا أن لهذه الهرمونات (وهي إفرازات الغدد الصماء) أثراً محتماً في عواطف الفرد، وهذا الأثر كل الأثر في قواه الجنسية لوضح لك ما قدمت.

إن نمو الظفر من منبته حتى نهاية الأصبع يتطلب أربعة أشهر، وحدوث أي مرض حاد خلال هذه الفترة يترك انخفاضاً مستعرضاً فيه... فإذا رأينا انخفاضاً مستعرضاً في منتصف طول الظفر مثلاً، كان معنى هذا أن هذا الشخص قد أصيب منذ شهرين بهذا المرض الحاد.

أما إذا بدا سطح الظفر مقعراً كأنه ملعقة، فهذه إشارة إصابة بفقر الدم ونقص في التغذية، وإذا زاد تحدب الظفر طولاً وعرضاً حتى يبدو كجزء من كرة، فهذه آية من آيات إصابة القلب بالتهاب في غشائه الداخلي، أو بمرض أصابه منذ الولادة، أو إصابة الرئتين بالدرن، أو بخراج، أو سرطان. والعجيب في سرطان الرئة الشعبي أنه إذا كانت الإصابة في الرئة اليسرى كانت الأظفار المصابة هي أظفار اليد اليسرى وحدها.

وللغدد الصماء التي لها دور خطير في نمو الإنسان وعواطفه ونشاطه الجنسي، كالغدة الدرقية في أسفل العنق والنخامية في أسفل المخ؛ فإذا كانتا في نشاط وحيوية كان عرض الكف عند مخرج الأصابع أكبر من طول الكف في مواجهة الإصبع الوسطى، وفي نقص إفراز هاتين الغدتين تكون العلاقة عكسية بين طول الكف وعرضها، كما أن اليد والأصابع تكون أميل إلى البدانة.

وارتعاش اليد قد يقود الطبيب إلى تشخيص كثير من الأمراض العصبية الخطرة، كما قد لا يعني شيئاً أكثر من الأرق، أو إدمان التدخين، أو مجرد الخوف، وقد يستطيع الطبيب الحاذق، أو على الأصح أدق الطبيب النطاسي، تشخيص المرض من غيره من ملاحظة طبيعة الارتعاش ووقته ودرجته.

أما البصمات فهي للأرب الجليل الطبيب الشرعي في اليد، حتى ليستطيع أن يقرأ منها الجريمة كاملة. والحقيقة أن البصمات التي يتركها الجاني على أداة الجريمة أصبحت في عصرنا

(البقية على صفحة ٢١)

عـــــوانس

للأستاذ رشدي الأشهب

كانت دائمة الصمت كثيرة الوجوم ، وإذا تحدثت فإنها تتحدث مع نفسها ، أو مع القطط التي تربيها وتقوم لها بحاجاتها من مطعم ومشرب ونظافة ، وهناك مجموعة كبيرة من الحمام تعودت أن تعتني به ؛ فإذا ما نادته أسرع بالنزول من أوكاره الخشبية فرمت له بالحب ، وأخذت تتحدث مع نفسها وهي تتأمله ، وربما هبط بعضه على كتفيها وقد تعود ذلك بعد أن أمن جانبها . كانت هذه « الحاجة صبيحة » صغرى الثلاث أخوات عوانس ، بقيت وحدها في الدار بعد أن توفيت الكبرى بعد مرض عصبي عنيف حاولت فيه أن تقتل نفسها مرتين ، وأما الثانية فهي تعيش في مستشفى المجانين ، أما هي فقد رأت أن تترك البيت لتنتقل إلى الدار الكبيرة التي يملكها أخوها « الشيخ مجاهد » ويعيش فيها مع عائلته وأولاده ، إذ عرض عليها أن تترك البيت [illegible] هذه رفضت متشبثة بحمامها وقططها وبإيراد البيت [illegible] أول كل شهر . كانت تحب هذه الحيوانات وتعطف عليها وتحدثها بكل ما في خواطرها، وطالما طردت خادمتها واستبدلت بها غيرها لأنها طردت قطة من المطبخ ، أو أهملت تنقية الحب الخاص بالحمام ، وفي مرة تشاجرت مع أخيها لأنه أراد أن يأخذ عدداً من الحمام ، وفي مرة أخرى حزنت وبكت عدة أيام حداداً على قط جميل كانت تدعوه « زهير » ووجدت عنه زائراتها من الجارات اللواتي كن يترددن عليها ويجدن في كلامها نوادر ومفارقات يتحدثن بها ، ومع ذلك فقد كانت تفضل الخلوة والاعتكاف عن الناس ، ولكنها لا تسأم الخلوة مع هذه الحيوانات الحبيبة إلى نفسها ، فهي تحبها لأنها تتحدث لها وتكثر من الحديث ، وربما قصت الربع حياتها وأفضت لها بعواطفها التي قتلها أخوها ، لأنه منع خطاباً كثيرين عنها وعن أختيها ، وتسبب أخوها الشيخ في موت الكبيرة منهن ، وفي جنون الثانية ، والأدهى من ذلك أنه يريد أن يضمها إلى بيته حيث تتحكم فيها زوجة أخيها ، والأهم من ذلك أنها لن تجد الهدوء الذي أحبته ، والسكينة التي تحلم فيها بأمانيها ؛ لأنها وإن تعدت الأربعين فإنها طامعة في موت أخيها ، وفي رجوع بعض الخطاب ليتزوجها من تختاره منهم ، لأنها ما زالت جميلة ، بدليل أن وجهها لم يتجعد ، وهي تخشى تقاليد الأسرة وإلا لأقلعت عن احترامها لأخيها وثارت عليه ، بل ولهربت إلى حيث تجد الحرية والحب ، إنه منعها من أن تكون زوجة ، وكذلك مع أختيها وتسبب في حدوث ذلك خوفاً على جزء عظيم من ثروته ، فقد خشي أن يطالبنه فيما بعد الزواج بحصتهن في الميراث ، وبذلك تخرج عدة آلاف من الجنيهات من يده ، ولم يكن له أبناء أخ ليزوجهن لهم كما يتخلص من هذا المأزق الكثيرون من أمثاله .. لم تكن وحدها تتحدث بهذا إلى قططها وحمامها ؛ بل كثيراً ما تحدثت لنساء القرية [illegible] وقصة أختيها المسكينتين ؛ وعلى الرغم من أنها [illegible] لأحد حالها ولم تتحدث عن أخيها بسوء ، فقد كان [illegible] التي تتحدث مع حمامها ، وإنما هذا ذلك [illegible] أن تظهر بالأبهة والكبرياء في حضور [illegible] . وربما تحدثت إليهن عن حنان أخيها إليها حينما رجع من العاصمة ، أو حينما زارها في العيد .. ولكن حدث أن أكثر الناس من التحدث عنها لأنها أخذت تتحدث أحياناً وتصيح وتبكي أحياناً . وأراد أخوها أن يرى ذلك بنفسه ، فذهب إليها بعد أن تسمع بنفسه وعزم على أن يضمها إلى بيته الكبير لعلها تجد مع أولاده وفي وسط عائلته ما يشغلها وينسيها آلامها وذكرى أختيها ! وعندما عرض عليها الأمر رفضت وبكت وصاحت فيه وأمرته بالخروج ، ولكنه أمرها بأن تسكت ؛ فما كان منها إلا أن هجمت عليه ، ولولا دخول بعض الناس من الجيران الذين حالوا بينهما لحدث ما لا تحمد عقباه .

وفي اليوم التالي تحدث الناس عن ذهاب الحاجة « صبيحة » إلى مستشفى المجانين ، ثم جاء بعض أولاد الشيخ فحملوا الأثاث وأخذوا الحمام وطردوا القطط .

(الناصرية — العراق) رشدي الأشهب

في دوائر الأدب والفن

معرض فني — بين حافظ والرصافي — محاضرة عن الديمقراطية

للأستاذ ثابت طعمة قرمان

معرض فني :

من الظواهر الجميلة حقاً ، والباعثة للإشراق ، أن تقام بين حين وآخر معارض فنية في القاهرة ، تصور لنا نشاط الجماعات الفنية ، وتعبر عن مبلغ تمثل الفنانين الشرقيين للنظريات الفنية في الغرب ، وتأثرهم بها ، وإدراكهم لأصولها ومجرياتها ..

من هذه المعارض المعرض الذي أقيم في الأسبوع الماضي في متحف الفن الحديث ، يضم مجموعة طيبة لأربعة فنانين مصريين ، هم الأساتذة عز الدين حمودة ، وزينب عبد الحميد ، وصلاح يسري ، ووليم إسحاق ..

وإنك لتجد نفسك في هذا المعرض أمام أربع شخصيات لها خصائصها وملامحها الواضحة وطريقة تعبيرها ، وإحساسها بالحياة ، وتأثرها بالأشياء ... فأنت تحس أمام لوحات الأستاذ عز الدين بأنه فنان مغرم بالجمال والانطلاق ... جمال الألوان ، وانطلاق الطبيعة .. نلاحظ ذلك في طريقة تعبيره ، واختياره لموضوعات رسمه .. فهو يختار المناظر الطبيعية البهيجة ، الفسيحة الآفاق .. الريف ، والنيل ، وأشجار الغاب ، والمراكب الجميلة على شطآنه ، ومعيش العرب في رحاب الأرض الواسعة ... كل ذلك يبرزه بألوان جميلة جذابة .. وتكاد فكرة التعبير عن الجمال بالألوان البراقة تأسره وتستبد بمنطق الواقع عنده ، فتراه يزور في بعض الأحايين ألوان الأشياء الطبيعية في سبيل هذه الفكرة ؛ فيلون بعض الأشجار باللون الأزرق الفاقع ، والأرض باللون الأصفر ، والنهر ببعض الألوان التي لا تناسبه ، ولكنها تكون مع ألوان الصورة مجموعة وحدة جمالية في الألوان ... وأعتقد أن الأستاذ حمودة غير موفق في رسم النماذج البشرية لهذه الجاذبية ، ولم أشعر أمام لوحاته الثلاث ، هيلين ، ومسمورنيل لسكاليس ، وخضراء ، إلا بشعور واحد .

أما السيدة زينب عبد الحميد فهي لا تحفل إلا بالمناظر الشعبية الملتصقة بالحياة ، فهي تنفذ إلى البيئات الشعبية لتصور بعض ملامحها ، ولتأخذ قطاعاً نابضاً بالحياة فيها ، فتصور القهوة ، والمدرسة ، والبناء ، والعجلة ، وفي القطار ، وحلقة الرسم وغيرها .. كل هذا بشيء من السخرية .

وتبدو لوحات الأستاذ صلاح يسري أكثر تحرراً وانطلاقاً ، لتأثرها بالمذاهب الفنية الحديثة عند الغربيين تأثراً كبيراً . ولا عجب بعد أن عرفت أن الأستاذ صلاح درس الرسم في باريس ... وتظهر في لوحاته الطريقة التجريدية التكعيبية الزخرفية في الأشياء وظلالها ، ويكتنف ذلك بعض التعقيد والغموض ، ومثل هذه الطريقة لا تحفل بتأثير الواقع وصدقه بقدر ما تحفل بالأثر الذاتي للناظر وهو أمام اللوحة توحي إليه بأشياء تتصل بخياله .. ولست أدري لماذا أحسست أمام هذه اللوحات بالكآبة والجمود ؟!

أما الأستاذ وليم إسحاق فأبسط الفنانين الأربعة تعبيراً وطريقة واستعمالاً للألوان .. فهو يستعمل ألواناً قاتمة ، ويصور صوراً فقيرة ساذجة منطوية ، فيها كثير من الحنان والرقة والانطواء الحزين ، والبساطة الجميلة ، كالأم ، والفتاة ، والفلاحة .. ونستطيع أن نرى الفرق بين تعقيد صلاح وبساطة وليم حين نقارن بين لوحة « نار » الفاضحة القاتمة الرمزية لصلاح وبين لوحة « نار » الهادئة الساكنة البسيطة لوليم ..

بين حافظ والرصافي :

احتفلت الدوائر الأدبية في العراق بالذكرى الخامسة لوفاة شاعر العراق الكبير معروف الرصافي .

ومن الملابسات الأدبية الطريفة أن ثمة وجوه التشابه بينه وبين شاعر النيل حافظ ابراهيم .. وأن ثمة هذه الوجوه في التقارب في منابع الإلهام ، والتشابه في منزع الشعر ، والاتفاق في كثير من الآراء ، ووجهات النظر ، وأمور الحياة !.

فقد عاش الشاعران أغلب حياتهما في أحضان العسر ، وبين ظلال الاضطراب في أمور الدنيا ، وذاقا صنوفاً من العذاب النفسي ، والحرمان المادي ! فغدا شعرهما شكوى مرة من زمانهما الخئون ، وقومهما السادرين ، الموغلين في بوادي الجهالة وتنكران الفضل ، وضياع الجميل !

مات والدا الشاعرين وهما لم يجاوزا الرابعة ، فاضطر حافظ إلى الانضواء تحت كنف خاله ، يعينه على تدبير حياته ، ويساعده على بناء مستقبله ، ورحلت أم الرصافي إلى بغداد وبين يديها طفلها ، تحاول أن تنقذه من براثن الفقر من العوز والإملاق !

وحياة الشاعرين في تلك الفترة (المبكرة العسيرة) عسيرة أعنف العسر ، تركت في شعرهما تلك الظلال الحزينة ، والنغمات الشاكية .. وسرعان ما رأى حافظ حياته في بيت خاله مفعمة بالمرارة ، لانصرافه عن الدرس والتحصيل ، وغيابه عن البيت ، وإقباله على الأدب تلك النهاية المحرقة !! .. فاضطر إلى الدخول في المدرسة الحربية على رغم ما فيها من شظف وعنف ، وسوء إدارة ، وتعرض بعد ذلك إلى كثير من الأساليب الاستعمارية الجائرة .. وكذلك اضطرت الأحوال المادية معروفاً إلى الدخول في المدرسة الحربية ببغداد ، ولم يستطع المضي بها حتى النهاية ، فتركها إلى النضال في سبيل وطنه العزيز ، وشعبه المكبل بكبول العبودية والفوضى والاستغلال ..

وظل الاثنان يكافحان للتحرر ، ويطلقانها حرباً عواناً على النازلين عليهم بالقوة والجبروت .. ويوجهان الجماهير الشعبية ، ومواكب الحرية ، إلى وجهة صحيحة ، بإيمان النفوس بالخلاص .. حتى إذا تحقق الأمل ، وانقشعت الغيوم السوداء .. لم تسكنا ، فظل الاثنان في معركة مع الواقع الزائف تحت أعباء من ذوي المنافع الخاصة ، وتحت وطأة من تنكران الجميل !

ومن الطريف أن كلا الشاعرين وجد في حياته من يسنده في مضمار حياته المضنية ، ويقوم حياته ، ويفزع إليه إن اشتد به الخطب ، فاتصل حافظ بالإمام الشيخ محمد عبده ولجأ إليه في أزماته واضطراب أموره ، واتصل الرصافي بالآلوسي فتزود منه زاده بالأدب والعلم القديم ومده بالقوة على مجابهة الحياة .

وهناك ما هو أكثر طرافة من ذلك ، وهو تنازع حافظ وشوقي على الإمارة الشعرية ، نعرف ذلك إذا تقدنا إلى أعماق حافظ ، وسبرنا نفسه ، وفي ذلك يقول الدكتور أحمد أمين بك : « ولعل حافظاً كان يرى في أعماق نفسه أن شوقي يفضله في شاعريته ، وإنما فضله يقربه إلى القصر وأنه شاعر الأمير ! » .. وكذلك نشأ هذا النزاع بين الزهاوي والرصافي في العراق ، وحوادث تخاصمهما وتراشقهما في الشعر معروفة لكل من درس حياة الشاعرين العراقيين ..

ويتفق حافظ مع الرصافي في الآراء ووجهات النظر فسيح واسع ، كموقفهما من المرأة ، وتأييدهما للأتراك في بادئ الأمر ، ونضالهما ضد الأجانب ، ومناداتهما بالوحدة العربية في كثير من الأحايين .

محاضرة عن الديمقراطية :

ألقى الأستاذ أحمد كامل كمالي في الجامعة الشعبية محاضرة استعرض فيها بعض الأطوار التاريخية التي مرت على الديمقراطية ؛ فشرح مفهومها عند اليونان قبل أرسطو ، ثم عرّج على الفلسفة الأرسطوطاليسية وذكر أهمها للأسس الديمقراطية ، فقال : إن أرسطو وضع أسساً للديمقراطية فقال: إنها حكم الشعب نفسه بنفسه ، ثم نادى بالمساواة ، وكانت طبيعة المجتمع اليوناني تستهل قبول هذا النص ، ومع ذلك فقد تعرضت للخرق والاتساع ، حتى إذا جاء القرن الخامس قبل الميلاد أصبحت الديمقراطية الواجبات الحكمية من الأعباء

الفقراء ، فكان الأغنياء مكلفين بتوفير أسباب الراحة للشعب ، ومن تلك الأسباب إقامة التمثيليات والمسارح لتسلية الشعب ، وهم مكلفون كذلك ببذل الأموال لبناء السفن ، والمدن .. وكان الحكام لا يستبدون بالحكم ، ولا يطول أمدهم على كرسي الإمارة أكثر من سنة يكون الحاكم مسئولاً خلالها أمام الجمعية العامة ..

ثم انتقل الأستاذ المحاضر إلى عصر الرومان فقال : ثم فهم الرومان الديمقراطية فهماً جديداً ، وتعرضت إلى الضيق والاتساع ؛ فطوراً يرجع الرومان إلى فلسفة أرسطو وأفلاطون فتسير على هديها ، وطوراً تتحول الديمقراطية عندهم إلى حكم أرستقراطي .. وحكم الأباطرة الرومانيين لا يخرج عن هذين الاتجاهين ...

أما في العصور الوسطى فقد دخلت أوربا في نظام إقطاعي وشملها ركود في مختلف الميادين ، وكان الناس في انقسام وتنازع ، ثم ظهرت نظرية الحق الإلهي ، النظرية السياسية التي كانت تقوم على أساس أن الله قد وضع حكاماً على الأرض وهم خلفاؤه بين البشر .. وكان المفكرون السياسيون من رجال الدين أو ممن يتعصبون لهذه النظرية ... بين السلطة الدينية والسلطة الدنيوية ... مختلفة .. وعلى العموم كانت هذه العصور عصوراً مظلمة ... السلطة فيها على القهر والقسوة ، وتجاهلت حقوق الشعوب .

حتى جاء عصر النهضة وشاعت في أوربا فكرة بعث الفلسفة اليونانية والرومانية القديمة ، وقامت نظرية الحكم على أساس عقلي ، فظهرت النظرية الميكيافيلية التي تقوم على انتهاز الفرص ، وفصل السياسة عن الأخلاق وإزالة تناقضهما ؛ فللسياسي الحق في أن يلجأ إلى الأساليب جميعها بما فيها الغدر والقوة والخيانة ليحقق برامجه .

وإلى جانب ذلك ظهرت فلسفة توماس مور في كتابه (المدينة الفاضلة) وهي محاولة لبث المساواة وإلغاء الملكية الفردية ؛ فقد فرض توماس مور وجود مجتمع يقوم على أسس معينة ، وتنظم حياته قوانين عادلة ، ويحكمه مجلس عام ، ولكن (مور) فكرة الخيالي عن ذهنه ولم يجد له مسوغاً ..

ثم ختم الأستاذ محاضرته بكلام عن الثورة الانجليزية التي قامت سنة ١٦٤٨ بقيادة كرومويل ، وكان الغرض منها إقصاء الملك شارل الذي يؤمن بالحق الإلهي ، ونشأت جمهورية كرومويل — وهي الفترة الوحيدة لنظام الجمهورية في انكلترا — وقد كان لهذه الثورة مؤيدون أمثال الفيلسوف (لوك) الذي قال : إن الإنسان بفطرته يستطيع التوفيق بين حريته وحرية الآخرين ، وإذا استطاعت الحكومة أن تقيم العدل أتاها ورعاها .. وكان للثورة كذلك مناهضون أمثال الفيلسوف (هوبز) الذي اعتقد أن الأفراد دائماً في عراك مستمر تسيرهم شهواتهم ونزواتهم وحريتهم في حق الملك ، ولا عاصم من هذا النزاع إلا الملك الذي يستند إلى سلطة قوية ...

غالب فخر قرمانه

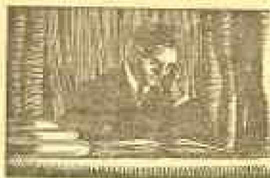
الطبيب يقرأ الكف

(بقية المنشور على صفحة ١٢)

المعاصر أخطر دلائل الإثبات ، لا لأنها لا تتطابق قط بين شخصين بل لأنها مترسخة على اليد منذ الولادة لا تتغير حتى الممات ... بعد الوفاة ، وقد عبث المجرمون والدجالون في الكف فيما بعد فشلت واتصل ربما ذلك النسيج المتطور الجلد ، لتبقى هذه البصمات ثابتة سبقاً بارزاً للحق في أعماق الجلد !

إن الطبيب يستطيع أن يقرأ في اليد أموراً كثيرة ليس هنا مجال الإفاضة في تفصيلاتها ... بل إنه بمجرد المصافحة قد يميز شخصاً مصاباً بتضخم الغدة الدرقية الإفرازي ، حيث تبدو اليد للامسها أبداً دافئة ناضحة بالعرق ، وإن اشتد البرد واصطكت الأسنان ؛ أما إذا بدت اليد للامسها خشنة وعند الفحص حمراء داكنة متهيجة ، فهذا معناه أن صاحب هذه اليد فقير لا يملك ما يبتاع به غذاء غنياً في فيتامين « ب » ، ولذا أصيب بالبلاجرا !.. بل قد تستطيع أن تقول إن هذا الشخص الذي قدمت — ولك أمل كبير في أن تكون على صواب !! — من إقليم الداخلية الشمالي حيث تكاد تكون الإصابة بهذا المرض عامة .

محمد صفوت فهمي الديب



نقد الكتب

ديوان عمـــاد

للأستاذ عبد الفتاح الديدي

كنت أنتقد — منذ وقت قريب — يمنة ويسرة في دواوين الشعر الحديث علني أصادف نموذجاً أقدمه كدليل على ما أومن به من الأصول الفنية والقواعد النظرية. ولكن عبثاً حاولت. فأصحاب المدرسة الحديثة في الشعر قد خيبوا آمالنا أكثر من القدماء، ولعلهم أفسدوا علينا عملنا — نحن النقاد — حينما أخذ الشك يتسرب إلى نفوس قراء الشعر فيما قدمه إليهم من النتائج، وفيما تحدث إليهم من التراجم. فالناقد المسكين لا يفعل شيئاً أكثر من أن يتابع ويلاحظ، وعمله بالضرورة سائر في أثر الأعمال الأدبية الخالصة، ولولا ظن القراء خيراً بصاحب الشعر لم يرحموا ناقده ولم يعفوه من الأخذ والملامة.

ومنذ عامين تماماً كتبت عن العقاد كنموذج للشعر الذي أعتقد في صلاحيته وأنادي بضرورة فهمه والتأثر به، ونبهت حينذاك إلى ظاهرة العمق والجمال التي يتسم بها شعر العقاد الفنان. وحاولت بعد ذلك أن أجد شيئاً مما أستحسنه في الشعر المعاصر لغير العقاد، ولكنني لم أجد مع الأسف الشديد، ومع الاعتذار إلى شعرائنا الأشبال. فأرجأت الكتابة التفصيلية التي تعتمد على التحليل وعرض النماذج، وأخذت أشرح في النظريات النقدية التي تلائم روحي وتمثل اتجاهي الخاص وتعبر عن بعض ما أومن به، حتى يتمثل لنا أذواقاً بأذواق، وحتى ينسى الخصيم ملابسات العاطفة ولا يبقى له غير منطق العقل وهداية الذوق.

ثم أخذت تظهر في الجو تباشير أمل جديد عندما بدأ الأستاذ عماد ينشر بعض مقطوعاته الشعرية في المجلات السائرة، إذ أخذت أرقبها من بعيد فأجد فيها بعض ما يدعوني إلى جانب التكبير مما يعجبني ويروقني. فها هي ذي ظاهرة العمق التي أنشدها ماثلة في الأبيات من أولها إلى آخرها. ومن أجل هذا جاء شعره جديداً في اللغة وجديداً في التعبير، ودون أن يشعرك بالتفاهة التي يحس بها قارىء الشعر العربي الحديث، ودون أن يصدمك بروح الزحل عند المعاصرين. والحق أن الشاعر المصري في هذه الأونة حائر بين العقل الذي يريد جديداً وبين الذوق الذي يحتاج إلى عناية كبيرة ومجهود ضخم حتى يتغير إحساسه وترتقي ملكته في الوزن والاستساغة. وأستطيع أن أقول: إننا، وإن كنا قد قطعنا شوطاً لا بأس به في جانب الفهم الخاص بالعمل الشعري، لم نزل فوق العتبات الأولى من ناحية التقدير والاستطعام والتذوق. وهذا طبيعي لأن الذوق لا يقفز، بل يحتاج إلى تمهيد طويل حتى يصل إلى الدرجة التي تتساوى مع المفهوم العام.

ثم بدأت بعد ذلك الوقت الذي تحكم أذواقنا وحدها فيه عندما نطالع عملاً شعرياً. وأغلب ظني أننا محتاجون إلى تغيير كل المظاهر الحيوية في المجتمع الذي نحن أفراده حتى

يتحول ذوقنا عن غذاء التقليدي إلى سبيل ابتداعي يلائم ما نصبو إليه أفكارنا التقدمية . فقد انتهت الفترة التي كنا نخضع فيها أعمالنا الفنية لمقاييس من صنع الأقدمين ، وجاء الوقت الذي نطبق فيه أنظاراً غربية مستحدثة على لغتنا وأدبنا العربي . وهذا من شأنه أن يوقعنا في مشاكل عدة . من هذه المشاكل أننا ما زلنا نسيء الرأي بكل ما هو أوربي ونحكم عليه حكماً جائراً يخيف طلاب العلم والثقافة . ومنها أن العمل النقدي يحتاج إلى النموذج الفني أكثر مما يحتاج إلى الإفاضة في شرح النظريات والتطويل في وضع الأصول . ومنها أيضاً أن الشعر الأوربي خاضع لمؤثرات غريبة عن مشاعرنا وعالم بالعناصر البعيدة عن تصورنا .

ولهذه الأسباب نفسها سأجد صعوبة في تقديم هذا الديوان الفريد الذي أخرجه الأستاذ الشاعر محمود عماد . إني أحتاج هاهنا إلى الحاسة الشوقية الباطنة عند القارئ ، ولا أطلب إليه هنا إخراج الأشعار في ثمرات صوتية . وكان بول فاليري يقول إن إدراك صوت الكلمات من طريق آذان الشعور والروح شرط أساسي للتمتع الحقيقي بالشعر . فإن صح أن للروح آذاناً ، فإنا نرجو من القارئ أن يتفضل فيعيرني إياها وقتاً قصيراً حتى أحدث في نفسه متعة لا يصادفها في أي مجال آخر من مجالات الفنون . إنها متعة الروح وقد خاطبتها الكلمات بالأسلوب الشفافي الذي يخفي من ورائه قلباً إنسانياً خالداً ووجداناً رقيقاً هادئاً .

قلت لك إن أهم ما يتجلى في شعر الأستاذ عماد هو العمق ، وها أنا أؤكد هذه الظاهرة بمجموعة من النماذج القصيرة ، يقول عن الليل :

مشت الدجنة في الفضاء وعومت

للنوم أطيار على الأشجار

فتشامم الخلان من لون الدجى

وتطلعوا لتساقط الأنوار

وتساءلوا كل رافق خلة

وبقيت أنظر في المحيط الساري

مستوحشاً تحت الظلام كأنما

في كل ناحية حبائل ساحر

ليلان .. ليل في السماء مروق

باد وليل في الثرى متوار

يتشاكلان كواكباً وصفاءها

وسواد آتية وبعد مزار

بحران .. بحر في الفضاء معلق

من فوق بحر غائر زخار

يتشابهان جواهراً ومخاطراً

وصراع أمواج وعمق قرار

الليل ظل الأرض يجري حولها

والبحر ظل الواحد القهار

وكذلك اقرأ من قصيدته في الربيع :

عرس بدا أم عيد

فيه الطبيعة تميد ؟

فتصل إلى هذه الأبيات التي يصف فيها شيخوخته أجمل وصف :

أزهر والشتاء يصب والثرى يتجمد ؟

يا قلبها لقد واستعدي على مقلد

لكنها الأيام تمر بنا لا أعهد

حتى الصبا يوحي لنا أن الصبا لا يعهد

إن الوداع يكثر التحديق فيما يفقد

يا ليتنا مثل الغصون ربيعنا يتجدد

لكننا مهما نعش فلنا ربيع مفرد

ووراءه يأتي خريف ثم لا يتجدد

فصلان .. ما يهب الحياة لنا وذاك يجرد

فصلان قصتنا وبعدهما يثار سرمد

أعجب بها من قصة في كل عرض تنفد

والناقدون لها هم أشخاصها لا الشهد

وإذا كانت ظاهرة العمق قد تمثلت في شعر الأستاذ عماد بوضوح ، فقد جاء هذا ملائماً لما فيه من طبيعة النزوع إلى التأمل ، ولما في عينيه من بريق التطلع والنظر . فليس

أجمل من الشعر الذي يحاول الأستاذ حماد أن يصل منه سبيلاً إلى ملاحظة الحياة في مظاهرها وشياتها المختلفة ، وهاهنا نجد الطور الأصيل للعمل الشعري لديه . فالأستاذ حماد وصّاف من الدرجة الأولى ، وقوام الفنية التي يلتقط بها شكول الحياة ومشاهد الطبيعة هي أبرز ما في شعره . والقدرة الفائقة التي استحوذ عليها في معرض الوصف ، إنما جاءته من باب العناية بالتأمل والنظر . وتبدو ظاهرة التأمل في هذه الأبيات تحت عنوان (سر الصنعة) :

أيها الوغل في البحث على غير هداية
مستقصياً غاية النهايات من تلك البداية
غاية النهايات أدنى منك من أقرب غاية
تطلب الآية بينما تحتوي أنفع آية
ليس من لا شيء يأتي شيء في النهاية
أنت مصنوع وسر الصنعة انتدى الغاية !!

ونرى حلقة الوصل فيما بين مقدرته على التأمل ووصافيته البارعة في مجالات الوصف . اقرأ هذه الأبيات من سينية قديمة له ، وعنوانها الخيال الذاهب :

أفي الحق هـذا ؟ لا .. وإني واهم
لن أرى الماضي الطليق تثورُ
وما إن أرى إلا كتاباً مزوراً
أجلْ فرية هذا الكتاب وزور
وتلك التي أنشأت أذكر عهدها
هي اليوم سر لم تبحه خدور
وأذكر فيه أنني كنت حالماً
أو انتاب عقلي في الزمان فتور
ولم يُر فيها من حلم مكدر
ولا لخيالات العقول ظهور
ولو صح أن النفس لن يصف طبعها
تجد بعد حلم ما إليه يشير
لكان عجيبي أن أرى الآن روضة
بها نبات حلاوة ونضير
فأما وما ألقاه ماض مجدد
فهذا في حظي القليل كثير
وإني أرى ذاك الخيال مصوحاً
لذلك في عرف الخيال كبير
على أن ما بي من ترقرق ورقة
خليق بأعمال النهى وجدير
ألا لفتة أو نظرة عربية
تصعد حبيم النفس وهو يفور
أثر أيها الروح القوي إشارة
عسى ينتهي تلك الصحيفة نور
أيمكن أن ألقاك من بعد سبعة
حسب . فإني الرأي فيك يدور
أيمكن أني أدرك الماء آسناً
ويهدي بهذا الماء وهو نمير ؟
أيمكن أن تلقاك عيني جهرة
وأنت لعيني جنة وحرير
أنت التي جئت بالأمس تطرقي
إلى الكون لما لم أجده يجير
وأنت التي أسريت حباً بمهجتي
وعلمتني كيف النفوس تطير
وأنت التي أوحيت لي بعد حيرتي
تماوية سحر لفظهن خطير
نعم . أنت حقاً . لا خفاء ولا مرا
ولاشك أنه حق أتم مرير
فإنا هناك اليوم حتى تلكأت
رؤاك وحتى ليس فيك مثير
تغير ذاك الوجه إلا أقله
ولاحت عليه وحشة ونفور
وتمزق من سفر الخيال صحيفة
بها صور مغبرة وسطور
وأصبح وحي الشعر كالطير واقفاً
يريد نهوضاً والجناح كسير

خرائب آمـــال وآثار صبوة

وأشـــباح نعمى جمعهن عسير

تحيط بها القلب كاليوم نائماً

تعيث طيور بالعوش تسـير

فيا جنة الحسن التي جف زهرها

وغاب قــاريها بهــا وهدير

سنهدي إليك اليوم أسلاب أمسنا

ونجزيك عنهــا ما جزاه شكور

فما قطفتــه العين زهراً نرده

دموعاً وأشجاناً إليــك تثور

ويا معبد الحب الذي اقفر ركنه

وتنكس فيه هيكل وستور

سنحيا نصلي في ذراك بشعرنا

فتســمع توراة بــه وزبور

ونحرق أكباداً عليــه زكية

فيعبق منها في حمــاك بخور

وندع أرواحاً يوحيك آمنت

فتفنى قرابيــن له ونذور

ومن ثم نبقى في خرائبك ناسياً

تحياتك آلام لنــا وثبور

ويمتاز شعر الأستاذ محمد — فضلاً عن ذلك — بأنه يقدم مع هذا الديوان بعمله الفني فكرة نقدية . وهذه هي الضرورة التي ينبغي أن يراعيها الشعراء في الوقت الحاضر . فليس الشاعر الآن شاعراً وحسب ، وإنما هو شاعر وصاحب رأي في الشعر ، ولما يخرج الديوان حاوياً فناً شعرياً ومقدماً للناس طريقة جديدة في نظم الشعر . أو بعبارة أكثر وضوحاً : الشاعر مطالب في هذه الأيام بأن يتقدم بشعره حسب مفهوم خاص ، وبناء على تعريف له يؤمن به ويقيم على أساسه نزعة أو مذهباً أو مدرسة .

وشعر الأستاذ محمد يستوفي هذا الغرض بشكل واضح جداً . بل لعله الشاعر الحديث الوحيد الذي لم يرقه أن يكون خالياً من الاتجاه وبريئاً من الأسلوب الشخصي في أعماله الفنية . وأول صفات هذا الشعر الجديد الذي نراه في ديوان محمد ، هي تلك الصلابة التي أذاعها في مستهل هذا القرن أساتذنا النقاد ، وتعصب لمذهبه فيها كل من المازني وشكري ، فقد قال هؤلاء إن القصيدة بنية حية ووحدة كاملة لا تحتمل التجزئة والتبعيض . جاء شعر محمد معبراً أبلغ تعبير عن هذه القاعدة الفنية ، حتى لنكاد لا نفهم أغلب قصائده إن لم نتله بها إلى الشطرة الأخيرة . مثال ذلك (الساقية الجافة) و (حق الشعر) . ونذكر هنا مقطوعة (حدود الكون) حيث تتجلى هذه الظاهرة :

ويوم شبــاب أركبونا بفجره

أثاثاً طهوراً لا يحصى خطاهــنا

فسرنا وسارت لا سوى ثرى ولا

أرى من جمال الكائنات سواها

فأول نعمة الكون خلق ذيلها

وآخره من جــدة أذاعهــا . .

ورغبته في أن يجعل من القصيدة وحدة هي التي أدت إلى وضوح روح الفكاهة والدعابة في أنحاء الديوان . فالمفارقة أو النكتة من أظهر الخصائص في شعر الأستاذ محمد بناء على رغبته في إيجاد كل موحد من القصيدة الشعرية . ومن طبيعة المفارقة أو النكتة أنها لا تظهر إلا عندما يحشدها الفنان في مجموعة من الأبيات . ولما نوى الشاعر أن يجعل من قصيدته كلها عملاً واحداً كانت روح الفكاهة أظهر .

ومن أظهر الخصائص الشعرية في هذا الديوان الجديد هي اختلافه عن القدماء في عنصر الموسيقى الذي يرتكز عليه العمل الأدبي . ولعلنا نذكر بهذه المناسبة ما قاله دلي في دفاعه عن الشعر من أن الإنسان — وهو الوتر الذي تضرب عليه الحياة بأشجانها وملاهيها فتخرج منه النغمات — لا يرتع أحياناً إلى إنتاج اللحن بقدر ما يتوق إلى إحداث التوافق وإيجاد الانسجام . وهذا هو الأمر في شعر الأستاذ محمد ، فالموسيقى التي تظهر في ثنايا شعره ليست من موسيقى اللحن في شيء ، وإن كانت من موسيقى الانسجام في كل شيء .

ومن هنا يعرضها القارئ على أذنيه فلا تكاد تتغنى ، ولكنه يعود فيستشعرها بقلبه ويحس بها في خاطره ، فتتخلل روحه وتثير في وجدانه نوعاً من الوجد والانبساط . انظر في قصيدة (دارهم) و (نجوى الليل) و (هنا) . أما أنا فأضعك بعض المقطوعات من قصيدة (ولدي الأول) :

وأخيراً صار لي ابنٌ … ثم أصبحتُ أبا
ليت شعري هل يراني … محسناً أو مذنبا

● ● ●

ولدي ! وهو نداءٌ … لم يجوده لساني
ولذا يضرب كالله … ن إلى قلبي الأوان
إنه تهليل إلى جان … لم أكن أول جان
منت بعض بين ذنوب … فيحق أذنبا

● ● ●

وإذا ما قلت وهبه الله … حي في أصل الوجود
نحن لم نطلب ولم نحـ … سن بميلاد الوليد
إنما آلات الله … رجع أذنبت من بعيد
لا ترى في صنعها … ربا … يا

● ● ●

ذاك تسريح من الكو … ن ضريق في القدم
نافذ في كل حي … بين حيث ولم
فإذا أصبحت لي ابنا … فبذلك الكون حكم
وجهودي لاتقاء الـ … حكم قد ضاعت هبا

● ● ●

يشهد الله وإنّ استنـ … فدت ميلاده حينا
ورأيت الكون ميدا … ناً يهول السائرينا
لا أرى فيك نكراً … بعد أن صار يقينا
إنما النكر تحديد الـ … نكر في أنت تهربا

● ● ●

صرت في الميدان واحقُ … راجلاً أو راكبا
حملة يفتدها الفنا … ء شدد أمراً واجبا
وسواء عشت منها … ظافراً أو خائبا

إنما الواجب أن تحـ … مل لا أن تغلبا

● ● ●

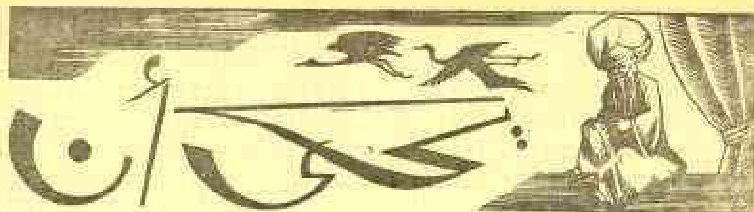
لم لا نمضي مع الأيـ … ـام حتى منتهاها
ونرى الدنيا التي اشتد … ت بنا أين مداها
نصل الأعمار عمراً … واحداً فوق ثراها
فيصير الناس إنا … ء أبيه الحقبا

وهذا كله يلائم اعتقادي في أن الشاعر ليس مطلوباً منه أن يتوفر العنصر الموسيقي في شعره بقدر ما هو مطلوب إليه أن يحقق عنصر الجمال في إخراجه . فالوزن الشعري يحقق عنصر الموسيقى والنغم من غير أدنى محاولة من الشاعر في غير رص العبارات وملء الأوزان بالحروف . أما الانسجام والتوافق فيما بين أجراس الحروف ومواقع التنغيم ، فهي وحدها التي تحسب للشاعر في عمله كفن خالص .

وإذا كنت في بداية حديثي أقرر هذه الحقائق ، وإذا كان حبي لهذا الشاعر العظيم قد دفعني لأن أقول عنه ما قلت ، فأنا لا أخاف الآن إذا قلت إن النغم أحياناً كان يبرد في يده إلى … روحه في الأداء الفني . ومن ذلك كان القارئ يشعر بعد بعض المقطوعات أنه لا يكاد يقرأ شعراً . ومن قبيل ذلك أيضاً أن ملكته في التصوير والتأمل كانت تجف في تعبيره إلى درجة تتخيل معها أن بعض شعره لا يعدو أن يكون تجريداً خالصاً . وأنا لا أنكر شعر التجريد ، فهذا ضرب من الشعر له أصوله وأوضاعه ، ولكني أخشى أن شاعرنا لم يقصد إليه قصداً ، فجاء تعبيره مفتعلاً ، ولم يكن حسب ما شاء لنفسه أن يكون .

وإذا كان للناقد أن يقول شيئاً بعد ذلك ، فيمكنني الحكم مع راحة الضمير بأن شعر الأستاذ محمد لا يقدم فناً وحسب ، وإنما يقدم معرفة في الفن أيضاً ، ولا يقتصر على أن يخرج لنا عملاً أدبياً فقط ، وإنما يحدث حركة نقدية إلى جانب العمل الأدبي الذي يخرجه . ومن ثم يظهر الديوان وقد أراد الأديب أضعاف ما أرادته الأعمال الأخرى ، ويسجل على صفحاته ميلاد أشياء في كثير .

عبد الفتاح الديدي



الرسالة

للكاتبة اللاتفية السكوتلندية مريينا زور موبهلن

ترجمة الأستاذ محمد فتحي عبد الوهاب

عندما قابلت مارتا للمرة الأولى ، كانت فاتنة القبح قد تعدت الأربعين . وكان وجهها يبدو كما لو أن فنانا غير موهوب قد نحته من خشب صلد بسكين غير حاد ، ثم حاول بلا جدوى أن يعالج ذلك الأنف الغليظ والذقن العريض والوجنتين البارزتين والفم الواسع . والعينان الزرقاوان وقد ظللتهما الأهداب السود تكونان ما نصيبه من الجمال ، لولا ما تفصحان عن نظرات أخاذة مشرقة .

ومع ذلك ، كان من الغريب على مارتا ألا تتزوج . فقد كان من النادر على فتاة ريفية قد فقدت والديها في سن مبكرة ، فتاة تملك مزرعة جميلة ، وبقرات سمان ، وجوادين وقطيعا كبيرا من الدواجن ، أن تظل عانسا أبد الدهر في بقاع لا تقيا حيث يعقد الزواج ، لا على شاب وفتاة ، وإنما بين مزرعة وأخرى .

بيد أن مارتا لم تكن تهتم قلامة ظفر بالزواج ، وهمس عجائز القرية من النساء بدليل بقصة حب حدثت وقائعها منذ عشرين عاما أو أكثر — قصة عامل روسي ، شاب حسن الطلعة لا يصلح لشيء ، قد أتى إلى هنا كما أتى غيره للعمل في محصول البطاطس .

وقالت عجوز وهي تبتسم ابتسامة من الكراهية ، ارتسمت على فمها الخالي من الأسنان : « لقد كان يسخر منها ، وكان قد خطبها وقرر الزواج في العام التالي ، بيد أن بوريس كان يود بادئ ذي بدء الذهاب إلى أمريكا حيث يقيم أقرباؤه الأثرياء كما يقول ، فيجودون عليه إذا ما عرفوا أنه أحسن اختيار زوجته ، وحينئذ يستطيع أن يشتري الحقول الثلاثة المجاورة ، ولعله يقدر كذلك على شراء الطاحونة ، ولكن تنقصها من الكبر عتيا ، وأصبح لا حول له ولا قوة .

ولم تكن مارتا تعير الحقول أو الطاحونة اهتماما كبيرا ، بيد أن بوريس كان يلح في السفر ، ولم تكن لتستطيع أن ترفض له طلبا .

ثم سعلت العجوز الشمطاء ، وبصقت المضغة التي كانت تلوكها من بذور زهرة عباد الشمس ، وأخيرا استرسلت في الحديث وقد سرها أن تجد من لم يسمع بهذه القصة ، قالت :

« لقد قال بوريس إنه في حاجة إلى المال ، ولا يود أن يبدو معدما ، وباعت مارتا عقارين وبقرات حسانا وقلادتها الذهبية وحتى العرس التي كانت تحتفظ بجهاز عرسها ، ووضع بوريس كل ذلك في جيبه ، وراح يحتسي الخمر ضاحكا في حانة القرية مع الشبان الآخرين ، ويسخر من مارتا ذات الوجه القبيح ، تلك التي صدقت كل ما قاله .

« وبعد حصاد البطاطس ، ظل بوريس بالمزرعة حتى نهاية الشتاء ، يعيش عيشة الأغنياء ، ثم رحل في الربيع ولم يعد بعد ذلك . ومنذ ذلك الوقت تحدر أن تتحدث مارتا

مع أحد . وها هي ذي تدير مزرعتها ، منتظرة عودة بوريس . بالمحبوبة العجوز ...» .

ولعل مارتا شعرت بحاجتها إلى من تفضي إليه بمكنون سرها ، ولعلها وجدت أنه من الأسهل لها أن تسرد قصتها على شخص غريب عن القرية . ومهما يكن السبب ، فإنها أوقفتني ذات يوم وأنا أمر أمام مزرعتها وسألتني أن أدلف إلى دارها وأشرب كوباً من اللبن .

ورمقتني بعينيها الزرقاوين ، وترددت ، ثم أخذت نفساً عميقاً ، وأخيراً قالت :

«من المحتمل أن تكون قد سمعت عني كل أنواع الشائعات . بيد أنه يجب ألا تصدق ما يقولونه في القرية . إنه لم يهجرني ، ولابد أن يعود» .

ثم هبت واقفة في إعياء ، وكأنها شاعرة بثقل الشيخوخة المبكرة ، واتجهت نحو صندوق كبير ، وفتحته وأخرجت منه رقعة باهتة : رسالة . كانت مؤرخة منذ عدة سنوات ، وكانت قادمة من بروكلين .

وقالت مارتا وقد أمسكت يداها المشققتان بالرقعة الباهتة في حنان : «لقد كتب لي هذه الرسالة . [illegible] كانت عزيزة ، كانت حب [illegible] الرسالة [illegible]» .

ونظرت إليّ مرة أخرى ، وفي عينيها نظرة استغراب على رأيي ، فإذا بها تقول : «إني أعرف بالطبع أنها رسالة غرامية ، ومع ذلك أود أن أعرف بالدقة مضمونها . أود أن أعرف كل كلمة من كلمات الحنان ، وكل جملة عاطفية ، ومتى سيحضر ليكون سيد مزرعتي» .

ولابد أنه قد بدت على سيماي دلائل الحيرة ، فسرعان ما استرسلت قائلة : «أنت تعرف أني لا أستطيع القراءة ، فإني لم أتعلمها مطلقاً . وليس هناك من أثق فيه فأطلعه على الرسالة . إن كل نساء القرية يكرهنني ، لأن الصبي الجميل قد أحبني ، والرجال يكنون لي البغضاء لأنني لم أتزوج واحداً منهم . فأنا على يقين تام من أنهم لا يودون إلا مزرعتي ، ولذلك حفظت الرسالة دون أن أطلع على ما فيها . ولكن أحياناً ما أخرجها من الصندوق وأتخيل ما كتب فيها . بيد أنك إذا ما قرأتها لي سيغمرني سرور لا يوصف» .

وأخذت الرسالة . كانت رديئة الخط ، تكاد تكون غير واضحة . وأخذت أطلع على محتوياتها قبل أن أقرأها لمارتا ، وكانت جالسة بجواري تلاحظني بعينيها الشرهتين المتلهفتين .

وقرأت الرسالة مرة ثم مرات . وسرت في جسدي رعدة قوية ، وانتابني دوار . لابد أن الرجل كان ثملاً لما كتب هذه الرسالة . فقد أبدى في رسالته من الوحشية والقسوة ما لم أتخيل مطلقاً إمكان وجوده .

كانت الرسالة بأجمعها مصوغة في قالب من الازدراء والتهكم على العجوزة الشمطاء التي آمنت بحبه . وتعمق كاتبها في وصف مارتا وصفاً كاملاً ، فسخر من حاجبيها «وكأنهما شعر الخنزير» وأسنانها «مثل العظام» وفمها «الواسع كفم الضفدع» . وبعد أن انتهى من إهانة وجه مارتا وشكلها ، كتب يمدح الفتاة الأمريكية الأنيقة الظريفة الجالسة بجواره وقد فاحت منها رائحة تضاهي أريج الزنبق في فصل الربيع . وجعل يشرح كيف أن الفتاة قد ضحكت عندما أخبرها عن تلك المرأة وحبها ، وأنها تتعجب من الإقامة في هذا البلد البعيد الزاخر بالنساء الجميلات .

وسمعت مارتا تسألني بصوتها الخافت الأجش المنفعل : «ماذا يقول ؟ لماذا لا تقرأ ؟ ما الذي تنتظره ؟» .

وكذبت . [illegible] خلاف ذلك ؟ وبيدين مرتجفتين ، وبصوت [illegible] أخبرتها أن بوريس دائم التفكير فيها ، [illegible] ذكرى رقتها ، والوقت السعيد الذي قضاه معها . وكذبت وقلت إنه متلهف للعودة ، وإنه سيعود حتماً في يوم ما ، في وقت أقل مما تتوقعه هي ، ولن يبتعد عنها بعد ذلك .

ولم يكن الكذب في بادئ الأمر شيئاً سهلاً على نفسي . فقد ولد اشمئزازي من الرسالة وشفقتي على مارتا شعوراً مريراً من الندم . ولكني أخذت بعد الجمل الأولى أكذب في توسع وعاطفة ، مستعملاً كل ما وعاه عقلي مما قرأته من رسائل الغرام الشهيرة .

وأخيراً وضعت الرسالة على المائدة ، ومدت مارتا يدها إليها ، وقد بدت كأنها تمثال خشبي قد دبت فيه الحياة بمعجزة ، ولم تعد تلك المرأة القبيحة الشكل ، بل طغى عليها نوع من الجمال الغريب الذي تخلقه السعادة .

وهمست قائلة : «هل كتب كل ذلك ؟ كل ذلك ؟ هكذا

الفيض من الكلمات العذبة ؟ هذا الدافق من الحب ؟.

ثم تنهدت وقالت : تصور أنى لا أستطيع أن أقرأ ذلك ؟ لماذا لم أتعلم القراءة ؟ أطلعنى على الصفحة التى كتب فيها مدى اشتياقه إلىّ ، وأين كتب أنه سيعود فى أقل وقت أتوقعه ؟.

وأطلعتها على بضعة أسطر فى الصفحة الأولى ، وقليل منها فى الصفحة الأخيرة . فأطرقت قائلة : لو كنت أعرف ذلك من قبل عندما كنت فى منتهى الوحدة واليأس ، لو كنت قادرة على قراءة تلك الرسالة البديعة كل يوم .. ثم نظرت إلىّ نظرة طفل يتلهف على الحلوى وقالت : خبرنى ، هل يستطيع إنسان فى سنى أن يتعلم القراءة ؟.

وانتابنى الخوف فقلت : سيكون ذلك شاقاً جداً ، ولماذا تودين تعلم القراءة مادمت قد عرفت محتوى الرسالة ؟.

فقالت : إنك على حق . ومع ذلك ، أود أن أقرأها وأتمتع بكل كلمة فيها . سأذهب إلى مدرسة القرية لتعلمها ...

ثم صمتت وقد شرد فكرها وأمست عيناها بالسعادة ، دون أن تلاحظ مطلقاً انسلالى مبتعداً عنها كأنما ارتكبت جريمة .

ومنذ ذلك الوقت لم أمر بمزرعة مارتا خشية أن تسألنى قراءة الرسالة مرة أخرى فأقول شيئاً لم أقله فى المرة الأولى ، وعندئذ يتطرق إلى قلبها الشك . ولكنى عرفت من المرأة العجوز المتهكمة أن مارتا تذهب يومياً إلى المدرسة وتقضى ساعة مع الطلبة .

وقالت العجوز ضاحكة : إنها تتعلم القراءة . تتعلم القراءة فى سنها . هل تظن أنها ستصير سيدة ؟ لقد اشترت كتاباً كبيراً كذلك الذى عند الأطفال ، وهى تجلس على مقعد أمام دارها ، والكتاب فوق ركبتيها ، تردد فى صوت جهورى : « ا ــ ب ــ ت .. فقط » بطريقة تميت الإنسان ضحكاً .

لقد كانوا يضحكون منها ، ضحكات قاسية جامدة ، ضحكات كالنقيق ، مع أنى كنت أشعر بما يحمله خافقها من بكاء وبكاء ، فى إشفاق وعطف .

وفى ذات مرة ضللت الطريق بينما كنت أتنزه ، فإذا بى أجد نفسى فى غابة كبيرة خلف مزرعة مارتا . كان الجو يوحى بقدوم الخريف ، والهواء يهب فى صفير من البحر .

واختبأت خلف الشجر ، ثم زحفت فى صمت . وبغتة أوقفنى صوت .. صوت أجش يردد بعض الكلمات فى حرارة « دار .. مزرعة .. كلب .. بقرة .. » كلمات بسيطة ، عادية ، ومع ذلك كانت تشق طريقاً يؤدى إلى طرف كأنه يسرى من الجنة ، ويصل به قدماً إلى الجحيم . واشتد الصوت « صلاة .. الله .. » .

آه ! أواه . لو يشاء الله لأرسل صاعقة من السماء تقتل مارتا قبل أن تستطيع قراءة الرسالة ، تلك الرسالة الكاذبة القاتلة الجاحدة . آه لو أراد الله أن يسبغها برحمته ، لأعماها حتى لا تستطيع عيناها المرهقتان المتطلعتان رؤية كلمة واحدة .

وأقبل الخريف على نهايته ، واكتسحت العواصف السهول ، ودوّى البحر وهدر ، ومدت الأشجار العارية أغصانها كأنها تستغيث طالبة المعونة ، وامتد بساط فاخر من أوراق الشجر على الأرض . ثم أتى الجليد ، وكسا كل شىء فى طهارة سماوية ، وحوّل ما تخلف من بؤس الخريف إلى عالم أبيض .

وفى ذات ليلة ، قبيل عيد الميلاد ، أضحى العالم الأبيض فى مرجل أحمر اللون لاتقاد ألسنة اللهب ، وأضاء الغابة ، حيث اشتعلت النيران فى مزرعة مارتا . وأقبل الرجال من القرية والعمال من المقاطعات المجاورة يتزاحمون لمكافحة الحريق . وأرشدهم الوهج الأحمر المتراقص على الثلج الأبيض إلى طريقهم ، حتى إذا ما أدركوا مقاطعة مارتا كانت المزرعة بأكملها تحترق . وألقت العاصفة التى كانت تهب من الشمال بشعلات من النيران على كل شىء . وخار البقر فى الحظيرة ، وصهلت الجياد من عقالها ، وأطلقت العنان لساقيها ، فجعلت تتسابق وقد جنت فزعاً مبتعدة عن اللهب فى طريقها إلى السهل الأبيض .

ووقفت امرأة أمام الدار المحترقة ، وقد انسدل شعرها الأشيب على وجهها المشوه وعينيها الزائغتين ، وهى تضحك ، ضحكات دوت فطغت على خوار البقر وطقطقة الخشب المحترق . وظلت تضحك وتضحك .

لقد قرأت مارتا الرسالة .

محمد فتحى عبد الوهاب

إلى الطبيعة

أنا لا أضيق وما أرى
أحداً بصاحبه يضيقُ
فإذا مررت على الطريـ
ـق وقد تجهمنا طريق
ورأيتني أمشي وحيداً
لا يصاحبني رفيق
متنقلاً في خطوتي
حتى وفي قلبي خفوق
لا تلحقني يا صاحبي
فأنا — على الدنيا — غريق

***

أنا يا أخي نشوان من
خمر الطبيعة لا أفيق
في كفها الوردُ الصبو
ح وزهرها [illegible] الرحيق
ودنانها الفجرُ الملا
ح تموج خمرتها العتيق
كل الذي فيها أراه
لنــاظري أبــداً يروق

***

يا للطبيعة إنها
عذراء ليس لها عشيق
هي فتنة طمس البصا
ئر عن مفاتنها عقوق
ما ضرّ روضة حسنها
أن ليس يعبدها مشوق
وكفى لها طير العصو
ر وشاعر غردٌ رفيق
ومن الخليق بها سوى
فنانها فهو الخليق

***

يا من لقلب قتادة
عيفاء أصبرُ لا بريق
أتلأ ما يبديه تمـ
ـوك من تموج لا يليق ؟
أنا لا أطيق عذابهن
فكيف أنت له تطيق ؟
كل الذي فيها خيا
ل زائف آله تشوق ؟
تمد الطبيعة إنها
في سحرها الحسن الأنيق

***

أرأيت أزهار الخما
ئل زانها عطر عبيق
قد طلها الطل الوديع
وصاغ حمرتها الشروق
أتريها شارتها التي
لبست يشوّعها خلوق
أيشوقك الزهر المثـ
ـر وعندك الزهر الرشيق
هي [illegible] تلقى الأد
ل وتهجر ما يشوق

***

إني عرفتك مذ نشأ | ت وبيننا نسب وثيق
جسدي تكون من ثرا | ك وصورتْ منه العروق
فإذا أحببتك ناهلاً | وكأني طيرٌ طليق
في صدرك الظل الحنون | وثغرك الحلو الدفوق
يا للطبيعة إنها | أم لنا وأب شفيق

***

هذي الطبيعة يا صديـ | ـقي لا يماثلها صديق
فإذا ذهبت لروضها | والروض مزدهر وريق
ولمحتني أمشي وحيداً | لا يصاحبني رفيق
لا تلحقني يا صاحبي | فأنا — على الدنيا — غريق

(القاهرة) كيوكل صبحي مشر

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر